

مجنون ليلى
تأليف
احمد شوقي بك

مجنون ليلى



تأليف

المرحوم أحمد شوقى بك

شركة فن الطباعة

تمهيـــد

(١) زمن الروايـة : صدر الدولة الأموية .

(٢) مكان الرواية : بادية نجد .

(٣) أشخاص الرواية :

قيس : مجنون ليـلى .
ليـلى :
المهـدى : أبـو ليـلى .
ورد : زوج ليـلى .
ابن عوف : أمير الصـدقات فى الحجـاز وعامل من عمـال بنى أميـة .
زياد : راوية قيس وصديقه .
منـازل : غريم قيس فى حب ليلى .
بشـر : رجل من بنى عامر .
ابن ذريح : شاعر من شعراء الحجاز .
نصيب : كاتب ابن عوف .
سـعد : رجل من بنى عامر .

الغريض : مغن مشهور .

ابن سعيد : شاعر .

أمية : رفيق ابن سعيد .

الأموى : شيطان قيس .

عضرفوت
هبيد
عسر
عاصف
} شياطين .

بلهاء : جارية قيس .

عفراء : جارية ليلى .

سلمى
هند
عبلة
} فتيات من بنى عامر .

رجال — قوافل — حداة — صبية — فتيات

الفصـــل الأوّل

« ساحة أمام خيام المهدى فى حى بنى عامر — مجلس من »
« مجالس السمر فى هذه الساحة — فتية وفتيات من الحى »
« يسمرون فى أوائل الليـل ؛ وفى أيدى الفتيات صوف »
« ومغازل يلهـون بها وهم يتحدّثون — تخرج ليـلى من »
« خيام أبيها عنـد ارتفاع الستار ويدها فى يد ابن ذريح »

ليـلى : دعى الغزلَ سلمى وحَيِّي معى منـارَ الحجازِ فتى يثرِبِ (*)

[تصافحه سلمى]

ويا هِندُ هذا أديبُ الحجازِ هلمّى بمَقـدَمه رحّبي

[تصافحه هند ويحتفى به السامرون]

سعد : أمِن يثرِبٍ أنت آتٍ ؟

ابن ذريح : أجـــل من البلد القُدُس الطيِّب

ليـلى : أيابنَ ذريح لقينا الغمام (السحاب) ، الرجل الكريم

هنـد : وطافت بنا نفحاتُ النبي

عبـلة [هامسة إلى سعد] :

(*) يثرب : المدينة المنورة .

مَن ابنُ ذَريح ؟

سعد : فتًى ذِكرُه على مَشرِق الشمس والمغرب

رَضيعُ الحُسَين عليه السلامُ وتِربُ الحُسَين من المكتبِ

عبلة [إلى بشر ومشيرة الى ابن ذريح] :

أتسمعُ بشرُ، رضيعُ الحُسَين فَديتُ الرضيعين والمُرضعه

وأنت إذا ما ذكرنا الحسينَ تصاممتَ !

بشر [هامسا وملتفتا كأنما يخشى أن يسمعه أحد] : لا جاهلًا مَوْضِعَهْ

ولكن أخاف امرأً أن يرى علىَّ التشيُّع أو يَسْمَعه

أحِبُّ الحسين ولكنما لسانى عليه وقلبى معه

حَبَسْتُ لسانىَ عن مدحه حذارَ أميَّةَ أن تقطَعه

إذا الفتنةُ اضطرمتْ فى البلاد ورُمتَ النجاةَ فكُن إمَّعَهْ

ليلى : إبنَ ذريحٍ، نحن فى عُزلةٍ فهل على مُستفهمٍ مثلِه بأسْ؟

دارُ النبيِّ كيف خلَّفتَها؟ كيف تركتَ الأمرَ فيها يُساسْ؟

ابن ذريح :

تركتُها ياليلَ مضبوطةً يحكُمُها والٍ شديدُ المراسْ
إن حديثَ الناس فى يثرب همسٌ وخَطوُ الناس فيها احتراسْ

ليلى: ابن ذريح، لا تجُرْ واقتصد أحلامُ مروانَ جبالٌ رواسْ
يؤسّسون المُلْكَ فى بيتهم والعُنْفُ والشدّةُ عند الأساسْ

[تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن لأخرى]

فتاة: ليلى على دينِ قيس فحيثُ مال تميلُ
وكلُّ ما سرَّ قيسا فعند ليلى جميلُ

ابن ذريح: ماالذى أضحك منى الظَّبياتِ العامريَّة
ألِأَنى أنا شيعيٌّ وليلى أُمَويَّة؟
إختلافُ الرأى لا يُفسدُ للودِّ قضيَّه

ليلى: أعرنى سماعك يابنَ ذريح ولا تَسمَعِ الطفلةَ الهاذيهْ
أتيتَ لنا اليومَ من يثربٍ فكيف ترى عالَمَ الباديه

أكنتَ من الدور أو فى القصور ترى هذه القُبَّة الصافيه
كأن النجومَ على صدرها قلائدُ ماسٍ على غانيه
هند: كفى يابنةَ الخال! هذا الحريرُ كثيرٌ على الرمّة الباليه
تأملْ تر البيدَ يابن ذريح كمقبرةٍ وَحْشَةٍ خاويه
سئِمنا من البيد يابن ذريح ومن هذه العيشة الجافيه
ومن مُوقِد النارِ فى مَوْضِعٍ ومن حالب الشاة فى ناحيه
وراغيةٍ من وراء الخيام تُجيبُ من الكلأ الثاغيه (*)
وأنتم بيثربَ أو بالعراق أو الشام فى الغُرَف العاليه
مُغَنّيكمُ مَعْبَدٌ والغريضُ وقَيْنَتُنا الضَّبُعُ العاويه
وقد تأكلون فُنونَ الطهاةِ ونأكل ماطَهَت الماشيه
ليلى: قد اعتَسفَت هندُ يابنَ ذريح وكانت على مَهدها قاسيه
فما البيد إلا ديارُ الكرامِ ومَنزلةُ الذِّمَم الوافيه

(*) الراغية : الناقة . والثاغية : الشاة .

لها قُبْلةُ الشمس عند البُزوغ ‏ وللحَضِرِ القُبــلةُ الثانيــه

ونحن الرياحين ملء الفضاء ‏ وهُــنَّ الرياحينُ فى الآنيــه

و يقتُلُنا العِشقُ والحاضراتُ ‏ يقُمن من العشق فى عافيه

ولم نصطَدِم بهموم الحيـاةِ ‏ ولم نَدرِ ـ لولا الهوى ـ ماهيه

وآنًا نخف لصَيْد الظباء ‏ وآنًا إلى الأُسـد الضاريه

هنـد [ساخرة] :

وفى كل ناحيــةٍ شـاعرٌ ‏ يغـنِّى بليـلاه أو راويه

[تحاول ليلى أن تمد رجلها فتتألم وتستغيث]

ليـلى : قيسُ ، إلىَّ قيس

هنـد : ما ‏ دهاكِ ليلى ما الخبرْ

ليلى : أُحس رجلِى خدِرت ‏ حتى كأنها الحجَرْ

هند : قد صحت : قيسُ ، مرتين

ليـلى : أو ثلاثا ! ما الضررْ ؟

(*)

هند [متهكمة]: اسم الحبيب عندنا نذكره عند الخدرْ

ليلى : هند، كَفَى دعابة إن هو إلا اسمٌ حضرْ

[لنفسها] :

ياقيسُ ناجَى باسمك الـ ـقلبُ اللسانَ فعثرْ

عبلة [ضجرة] :

أماسوى هذا الحديث شاغلٌ؟ كيف ظلِلْتَ اليومَ يامنازلُ؟

منازل [ضاحكا] :

منازلُ اليوم كأمس هازلُ يشرَبُ أو يَطْعَمُ أو يُغازلُ!

هند : بخٍ ! كذا فلتكنِ الحياةُ مُت يابعيرُ وانفُقِي ياشاةُ

انغمست فى الترف الرعاةُ !

ليلى : وكيف ظللت اليوم سعد؟ أهازلٌ كتربك أم فى صالحٍ ورشادِ؟

سعد : بل الجدُّ ياليلى سبيلى وديدنى حياتِى بِوادٍ والمجُونُ بوادِى

صحبتُ زيادا طول يومى تلقفاً لأشعار قيس من لسان زيادِ

(*) خدرت الرجل : تملت .

وإنَّ زياداً منذ كان لرائحٌ ... علينا بشعر العامرى وغادى
ولولا زيادٌ ما تمثل حاضرٌ ... بأشعار قيسٍ أو ترنم بادى

[يبدو على ليلى شيء من الزهو فتتهامس الفتيات]

سلمى: انظرى هندُ ترىْ ليلَى اكْتست زهوا وكبرَا
وتعالت كابنةِ النعمان أو كابنةِ كسرى

هند : لِمَ لا سلمى ، ألم يرْ ... فع لها المجنونُ ذكرا؟
عبلة : لِمْ إذن ياهندُ مِن ... قيس ومما قال تَبرْا؟
هند : عَبَثُ النِّسوة ، إنّا ... نحن بالنسوة أدرى!

سلمى: سلوا الآن بشراً فيم أنفق يومَه؟

أصوات : ... سلوه
هند : ... سلى يا ليلَ عن يومه بِشرا
ليلى : وهلَ يومهُ إلا الشؤونُ كأمسه ... من الصيد؟
هند : ... إن الصيدَ لذتُه الكبرى
بشر : نعم هو ملهاىَ الذى لا أملّه ... ولا النفسُ تُعطَى عن تناوله صبرا

ولو كان عيشي في قصور أميّة لعلّمتُ فن الصيد فتياتها الزهرا
وما أنا صيّادُ الأرانبِ مثلهم ولكن على حيّاته أليجُ القفرا

ليلى : إذن هات واصدُق بشرُ في القول مرّةً
ولا تخترعْ أو تبنِ من خنجرٍ قصرا

بشر : دعى عنك هذا السُّخرَ ياليلَ واسمعى

ليلى : تحدّثْ فلا واللهِ لم أُضمِر السُّخرا

بشر : بكَرْتُ كدأبي اليومَ أبغى قنيصةً ومن يتصيّدْ يحسبِ الغُنمَ والخسرا
(رأيت غزالا يرتعى وَسْطَ روضة
فقلت أرى ليلى تراءت لنا ظُهرا) (*)

هند [مشيرة الى ليلى] :
وأىّ الليالى بشرُ آنستَ ؟ هذه ؟

بشر : إذا شئت ـ أوهاتيكِ ـ أوحُرّةً أخرى

(*) الأبيات التى بين الأقواس من شعر قيس .

فقلتُ له يا ظبيُ لا تخشَ حادثا (فإنك لى جارٌ ولا ترهب الدهرا)
(فما راعنى إلا وذئبٌ قد انتحى فأعلق فى أحشائه الناب والظُّفرا)
(ففوقتُ سهمى فى كتومٍ غمستُها فخالط سهمى مهجةَ الذئبِ والنحرا)

ليلى [ضاحكة] :

أخى بشرٌ لا شُلت يمينُك من يدٍ ولا فَضَّ فاك الصبحُ والليلُ ما كرا
سمعنا بإقدام اللصوص وفتكهم فلم نر أدهى منك فتكا ولا أجرا
ووالله لم تغضب لظبي ولم تثب بذئب ولم تُعمل خيالا ولا فكرا
أأخذتَ فلم تترك لقيسٍ بضاعةً سرقتَ لعمرى الظبي والذئبَ والشعرَا

[ضحك من الجميع] :

جديثُ الظبيِ والذئبِ وقيسٍ لستُ أنساهْ
زياد عنه نبَّانى ولا ينبيكَ إلّاه
رأى قيسٌ على رابية ظبيا فناداه
فألقى الظبيُ أذنيْه ومس الأرضَ قرناه

[ثم تقول فى لوعة وصوت مخفوض وكأنما تحدث نفسها] :

بروحى قيسُ هل راحت ظباءُ القاع تهواه!

وهل يرثى له الريمُ ولا أرثى لبلواه!

[تسترسل فى حديثها الأول] :

على فيه من العُشْب بقايا صبغت فاه

رأى فى جيده قيسٌ وفى عينيه ليلاه

فبينا هو فى الشوقِ وفى نشوةِ ذكراه

حبا الذئبُ من الوادى إلى الظبى فأرداه

تغدّى بحشى الظبى غداءً ما تهنّاه

رماه قيس فى المقتل بالسهم فأصماه

بشر [مندفعا بحماسة] :

أجل يا ليلَ ! ما قلتِ سوى شيء شهدناه

وإن لم تذكرى القبرَ ولا كيف خططناه

حفرنا القبر للظبى وقمنا فدفناه

وصلّينا على الميْت ... و بالدمع سقيناه
فقولوا ولتقل ليلى ... معى : يرحمهُ الله!

[أصوات ، بين الضحك والسخرية] :

أجل بشرُ!

أجلْ بشرُ! ... اجل يرحمه الله!

ابن ذريح :

بشرُ، كفَى هزلا وتخليطا كفَى ... ويابنةَ العم مضى الليلُ سُدَى
أرسلنى قيسُ فلو أخبرتِنِى ... متى متىْ بأمر قيس يُعتنى
بتنا نخافُ أن يحِلَّ خطبُه ... وتبلغَ البلوى بقيسٍ المَدى
وقيسُ ياليلى وإن لم تجهلى ... زين الشباب وابنُ سيد الحمى
لم ندرِ فى حيِّك أو فى حيِّه ... فتى حكاه نسبا ولا غنى
ولا جمالا ، وهنا (ياليلَ) ما ... ترينَ أنتِ لا الذى نحن نرى

بشر [ساخرا] : بخٍ بخٍ ! ابنُ ذريح خاطبٌ

ابن ذريح : أسكت ، فلست للمروءات أخا

ليلى [غاضبة] : فيم هذا الكلامُ يابن ذريح؟

ابن ذريح : اتقِ اللهَ واقصِدى فى التجنى

ليلى : ما تجنيتُ

ابن ذريح : بل ظلمتِ ، دعيى ... أحسن الذَّودَ عن صديقى وخِدنى

ليلى : أنا أولى به وأحنى عليه ... لو يُداوَى برحمتى والتحنِّى

يعلمُ اللهُ وحده ما لقيس ... من هوًى فى جوانحى مستكنّ

إننى فى الهوى وقيساً سواءٌ ... دَنُّ قيس من الصبابة دَنِّى

أنا بين اثنتين كلتاهما النـ ... ـار فلا تلحَنى ولكن أعِنِّى

بين حرصى على قداسة عرضى ... واحتفاظى بمن أُحبُّ وضنِّى

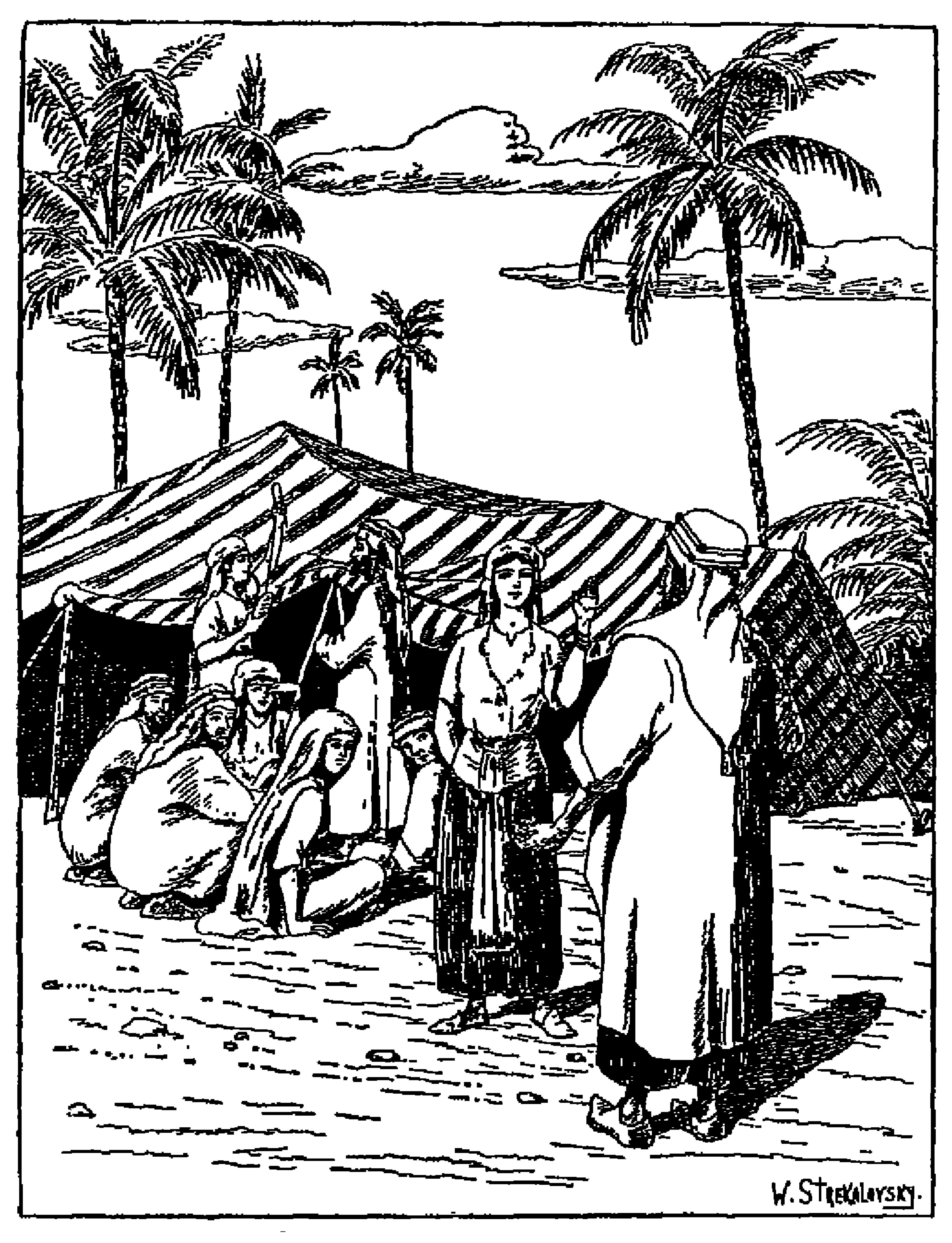
صنتُ منذ الحداثة الحب جهدى ... وهو مستهترُ الهوى لم يَصُنِّى

قد تغنى بليلة الغيل ، ماذا ... كان بالغيل بين قيس وبينى!

كل ما بيننا سلامٌ وردٌّ ... بين عين من الرفاق وأذن

وتبسَّمتُ فى الطريق إليه ... ومضى شأنه وسرتُ لشأنى

[تهيب بالساحرين وقد بلغ بها الغضب أقصاه] :



قد تغنى بليلة الغيل ، ماذا كان بالغيل بين قيس وبيني !

أوْغل الليلُ فلنقمْ

ابن ذريح [متوسلا] : بل رويدا واسمعى ليلى

ليلى : خلِّ عنِّى دعنِي !

[تدخل خباءها بينما ينفض السامرون فلا يتثاقل منهم
فى القيام إلا منازل ـ الهرج والأسف يسودان الجميع]

بشر : انفضَّ سامرُ ليلى وكان حَفلا كريما

سعد : قد فَضَّه ابنُ ذريح ففض عقدا نظيما

أثار ليلى فهاجت كما تنفَّر ريما

تُرى أتُبغضُ قيسا

ابن ذريح : لا تقلبوا الحبَّ بغضا

ليلى العشيةَ غضبى ويُصبح الصبحُ ترضى

سعد : أنعم (مُنازِ) مساءَ

منازل : نَعِمْتَ سعدُ مساءَ

هند : بشرُ مسَّيتَ بخير

بشـر : أنعمى هنـدُ مساءَ

هنـد : نحن يحوينا طـريقٌ فامضِ بلّغني الخبـاءَ

سعد[ضاحكا] : احذرى ياهند منه !

هنـد : أنا لا أخشى اعتداء

قد عرفتم وعرفنـا كيف يصطاد الظباء

[تسمع ضحكاتهم من أقصى الطريق بينا يظهر
قيس وزياد من جانب المسرح الآخر]

قيس : سجا الليلُ حتى هاج لى الشعرَ والهوى
وما البيدُ إلا الليلُ والشعرُ والحبُّ
ملأتُ سماءَ البيد عشقا وأرضَها
وحُمِّلتُ وحدى ذلك العشقَ يا ربُّ
ألم على أبيـات ليـلى بىَ الهوى
وما غيرَ أشواقى دليلٌ ولا ركبُ
وباتت خيامى خطوةً من خيامها
فلم يشفنى منها جوار ولا قرب

إذا طاف قلبي حولها جُنَّ شوقُه
كذلك يُطفِى الغُلّةَ المنهلُ العـذب
يحن إذا شطت ويصبو إذا دنت
فيـاويح قلبي كم يحن وكم يصـبو
وأرسلنى أهلى وقالوا امض فالتمس
لنا قَبَسا من أهل ليـلى وما شـبوا
عفا الله عن ليـلى لقد نؤت بالذى
تحمَّـلَ من ليـلى ومن نارها القلب

منازل [وقد سمع همهمة الصوت ورأى شبحيهما فى الظلام] :

أرى شبحا مقبلا فى الظلام — وأسمـع همهمة فى الدجى
هو ابن الملوح دل الهـزالُ — عليـه ونمّ اضطراب الخُطا
علوّى المبين وما بيننا — وما بين صاغيتينا جفـا (*)
روى شعره البدو والحاضرون — وشعرى ليس له من روى

(*) صاغية الرجل : قومه .

وهام بليلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
تشرّد مستعطفا فى البلاد وجُنّ فما ازداد إلا نُهى
و إنى لأُبدى إليه الوداد وأخفى له فى الضلوع القِلى
وأحسُدُه حسدًا ما علمتُ أقيسٌ الشقىُّ به أم أنا

[يتقدّم منهما خطوات] :

مَن الراكبُ الليلَ ؟ قيسٌ أخى ؟

قيس : منازل ؟ ما أعجبَ الملتقى !

منازل : أقيسًا أرى فى ظلال البيوت وعهدى بقيس حليفَ الفلا

قيس : منازل، من أين ؟

منازل : من عندها من السّمر الممتعِ المشتهى

قيس [حنقا] :

أمن عند ليلى تجرُّ الذيول حديثٌ لعمرُ أبى مفترى

منازل : بل الصدقُ ما قلتُ يا بن الملوّ ح

قيس إخسأ متى قلت صدقا متى؟

وما كنت تصنع ؟

منازل [ساخرا] : ما يصنعون لموت لعمرِىَ فيمن لها

وسامرُ ليلى كثير الزِّحام فلست تعدُّ شبابَ الحمى

وليلى تُفيضُ على من تشاء رضاها وتحرمُه من تشا

زياد [مغضبا] :

منازل، قيسُ، سبيلَك قيس! وكِلْ لىَ تأديبَ هذا الفتى

منازل [وقد أخذ بتلابيبه] :

تؤدبُنى زيادُ وأنت ظل لمجنون وراوية لهاذى

وتزعمُ أننى نِدٌّ لقيس رضيتُ من المصائب غيرَ هذى

زياد : من قال ذا؟ أنت لقيسٍ نِدٌّ! لم يبق فيك يا حياةُ جِدٌّ

إمض بنا ناحيةً يا وغد

[يجرّه إلى حيث تسمع أصواتهما من بعيد
ثم تختفى فيقبل قيس على خباء ليلى و ينادى]

قيس : ليلى !

[المهدى خارجا من الخباء] :

من الهاتف الداعي؟ أقيس أرى؟
ماذا وقوفك والفتيان قد ساروا

قيس [خجلا] : ما كنتُ يا عمّ فيهم

المهدى [دهشا] : أين كنت إذن ؟

قيس : في الدار حتى خلَتْ من نارنا الدار
ما كان من حطب جَزْلٍ بساحتها أودى الرياحُ به والضيفُ والجار

المهدى [مناديا] : ليلى ، انتظر قيس ، ليلى

ليلى [من أقصى الخباء] : ما وراء أبى ؟

المهدى : هذا ابن عمّك ما في بيتهم نار

[تظهر ليلى على باب الخباء] :

ليلى : قيس ابن عمى عندنا يا مرحبا يا مرحبا

قيس : مُتّعت ليلى بالحيا ة وبلغت الأربا

ليلى [تنادى جاريتها بينما يختفى أبوها فى الخباء] :
عفـــراء

عفراء [ملبية نداء مولاتها] : مولاتى

ليلى : تعالى نقضِ حقا وجبا

خذى وعاءً واملئيه لابن عمى حطبا

[تخرج عفراء وتتبعها ليلى]

قيس :

بالروح ليلى قضت لى حاجةً عرضت ماضرها لو قضت للقلب حاجات

مضت لأبياتِها ترتاد لى قبسا والنار يا رُوحَ قيسٍ ملءُ أبياتى

كم جئتُ ليلى بأسباب ملفقة ما كان أكثر أسبابى وعلاتى

[تدخل ليلى]

ليلى : قيس

قيس : ليلى بجانبي كلُّ شيء إذن حضر

ليلى : جمعتنا فأحسنت ساعةٌ تَفْضُلُ العُمُر

قيس : أتجدِّين ؟

ليلى : ما فؤا دى حديدٌ ولا حجرْ

لك قلبٌ فسله يا قيس ينبئْكَ بالخبر

قد تحملتُ في الهوى فوق ما يحمل البشر

قيس : لستُ ليلاى داريا كيف أشكو وأنفجر ؟

أشرح الشوقَ كله أم من الشوق أختصر ؟

ليلى : نبِّنى قيس ما الذى لك فى البيد من وطر ؟

لك فيها قصائدٌ جاوزتْها إلى الحضَر

كلُّ ظبيٍ لقبتَه صُغت فى جيده الدرر

أتُرى قد سلوتَنا وعشقتَ المَها الأخر ؟

قيس : غِرتِ ليلى من المها والمها منك لم تَغَر

حَسب البيدَ أنها بكِ مصبوغةُ الصُّوَر

لستِ كالغيدِ لا ولا قمر البيد كالقمر

ليلى [وقد رأت النار تكاد تصل إلى كم قيس] :

ويح عيسىَّ ما أرى

قيس ؟

قيس : ليلى

ليلى [مشفقة] : خذ الحذر !

قيس [غير آبه إلا لما كان فيه من نجوى] :

رُبَّ فجرٍ سألتُه هل تنفستِ في السحر

ورياحٍ حسبتُها جرَّرت ذيلكِ العطر

وغزالٍ جفونُه سرقت عينَك الحَوَر

ليلى : اطرح النارَ يا فتى أنت غادٍ على خطر

لهبُ النار قيسُ في كمك الأيمن انتشر

قيس [مستمرا بعد أن رمى النار من يده] :

وذئاب أرقُّ يا ليلَ من أهلِك الغُيُر

أنستْ بي ومرَّغت في يدي الناب والظفُر

ليلى : ويح قيسٍ تحرقت راحتاه وما شعر

قيس : أنت أججت في الحشى لاعجَ الشوقِ فاستعر

ثم تخشينَ جمرةً تأكلُ الجلد والشعر

[يترنح قيس في موقفه وتظهر عليه بوادر الإغماء] .

ليلى: فدَاك أبى قيس، ماذا دَهاك؟ تكلم، أَيْنَ قيسُ، ماذا تجد؟
قيس: أُحسُّ بعينىّ قد غامتا وساقىّ لا تحملان الجسدْ

[يخر صريعا إلى الأرض فتتلقاه على صدرها صارخة] .

ليلى: يا لأبىْ للجار، قيسٌ صريعُ النارِ، مُلقّ بصَحن الدارِ

[يخرج أبوها من الخباء على صوت استغاثتها] .

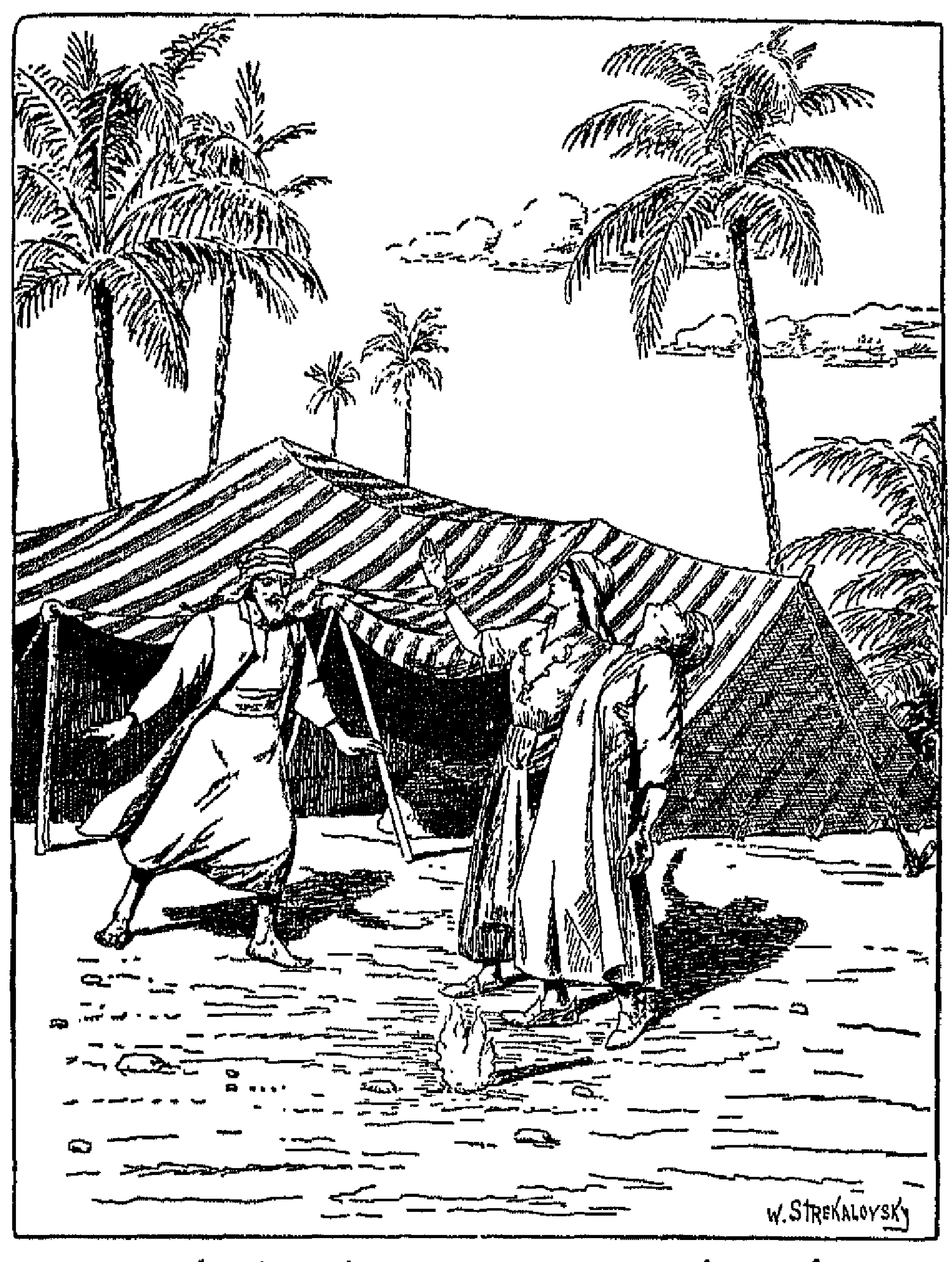
أبى ها أنت ذا جئت أغِثنا أبتِ أدركْ
لقد حُرِّق بالنار فما يصحو إذا حُرِّكْ

المهدى: يرانا الناسُ يا ليلى

ليلى: أبى، أنف الناسَ من فكرك

هنا لا تقعُ العينُ على غيرى ولا غيرك
ولا يَطْلُعُ إنسانٌ على سرى ولا سِرك
ولا أجدرُ من قيس بإشفاقك أو برك
أبى، صدرىَ لا يقوى فأسنده إلى صدرك

المهدى [وهو يتلقى عنها جسد قيس و يحاول إنعاشه] :



أبي ها أنت ذا جئت   أغثنا أبت أدرك

رعاكَ اللهُ ياليلى وكافاكِ على صبركِ
أخاف الناسَ فى أمرى وأخشى القلبَ فى أمركِ
وكم داريتُ ياليلى وكم مهّدتُ من عذركِ
ولستُ الوالدَ القاسى ولا الطامعَ فى مهركِ

[يناجى قيسا فى غيبوبته] :

أبا المهدىّ عوفيتَ ويابورك فى عمركَ
أرانى شِعرُكَ الويلَ وما أرْوى سوى شعركَ
كما لَذّ على الكُره كلامُ الله للشركَ

[يتحرك قيس ويبدو عليه كأنما يفيق فيناديه]

المهدى : قيس

قيس [يحاول الوقوف فتسنده ليلى] :

عمّ ، لبّيك عمّ

المهدى : حسبُك فاذهبْ لا تطألى بعد العشيّة دارا

ليلى : أبتى ، لا تجُرْ على قيس

المهدى : لِمْ لا

إن قيسا على القرابة جارا

ليلى : أبتى، ما تراه كالقَنن الذا وى نُحولا وكالمَغيب اصفرارا؟
وتأمــل رداءه ويديه تجـدِ النـارَ أو تر الآثارا
أبـتى، دَعْـه يَسـترحْ
المهدى : بل دعينـا لا تزيدى ياليلَ سُخطى انفجارا

قيس :
حسبُ ياليلَ، حسبُ ذلا لعمّى وكفى حلِفةٌ له واعتذارا
عمُّ ماذا جنيت ؟
ليلى : ماذا جـنى قيـس !
المهدى : نسيت الرُّواةَ والأخبارا
قيس : إنهم يأفِكون يا عمُّ
المهدى : والغيـلُ أليـلًا غشِيتَه أم نهـارا؟
ماالذى كان ليلةَ الغَيْل حتى قلتَ فيها النّسيبَ والأشـعارا؟
قيس :
لم تكنْ وحدها ولا كنتُ وحدى إنمـا نحن فِتيـةٌ وعذارى
جمعتْنـا خمـائلُ الغيـل بالليـل كما يجمـعُ الحِمَى السُّمّارا

ليسَ غيرَ السلام ثم افترقنا ذهبتْ يمنةً وسرتُ يسارا

المهدى :

إمض يا قيس إمض لا تكسُ ليلى كلَّ حينٍ فضيحةً وشنارا

فكأنى بقصة النار تُروى وكأنى بذلك الشعر سارا

وكأنى ارتديتُ فى الحى ذلا وتجللتُ فى القبائل عارا

إمض قيس آمْض

قيس : عمُّ رفقا بليلى وبقيس ولا تكنْ جبارا

الحذارَ الحذارَ من غضب اللـه ومن سُخطه الحذار الحذارا

المهدى :

إمض قيسُ آمْض جئت تطلب نارا أم تُرى جئت تُشعلُ البيتَ نارا؟

[يخرج قيس]

« ستار »

الفصـــل الثـانى

«طريق من طـرق القوافل بين نجد و يثرب ، على مقربة من حى بنى عامر»
«حيث تبدو مضارب هذا الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل تو باذ —»
«قيس و زياد جلوس إلى جذع نخـلة ، يستشرفان شبحا يسـير نحوهمـا»

قيس : زياد ماتلك؟ مَن الجُوَيْرِيَه؟ أتلك (بلهاءُ) ؟

زياد : أجَل قيس ، هيَّه

[تظهر بلهاء وعلى رأسها قصعة] :

قيس : بلهاء كُيف الحى ؟ كيف أميه ؟

بلهاء [وهى تضع القصعة] :

تسأل عنك كما سألت

[تبدو على قيس كراهة للطعام وعزوف عنه]

زياد : بالله قيس إلا أكلت

[يشتد ميل قيس عن الطعام]

بلهاء [هامسة لزياد] : زيادُ ما ذاق قيسٌ ولا همّا

زياد : طبخُ يدِ الأمِّ يا قيسُ ذُقْ ممَّا
الأمُّ يا قيسُ لا تطبُخُ السمّا

[ينزع عن القصعة غطاءها] .

تعالَ تأمَّلْ قيسُ ، تلك ذبيحةٌ

قيس : عسى اليومَ نحرُ

زياد : أين نحن من الأضحى؟

قيس : أرى صُنعَ أمي يازيادُ ، فَدَيتُهَا بروحى وإن حمّلتُها الهمَّ والبرْحا

ستخبرنا البلهاء

زياد : بلهاءُ بيّنى

ولا تكتمى عنّا الحديث ولا الشّرحا

بلهاء : لقد مرّ عرّاف اليمامةِ بالحمى فما راعنا إلا زيارتُه صُبحا

طوى الحىَّ حتى جاء عن قيسَ سائلا

وأظهر ماشاءَ المودّةَ والنُّصحا

ولاحت له شاةٌ جثومٌ بموضعٍ تخيّلها ظلا من الليل أوجُنحا

فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندَها فقام إليها يافعٌ يُحسنُ الذّبْحا

فقال انزعوا من جُثة الشاةِ قلبَها فلم نألُ قلبَ الشاة نزعاولا طرْحا

فلما شويناها رَقَى بعزائم عليها وألقى فى جوانبها المِلْحا

وقال اطلبوا قيسًا فهذا دواؤه كأنى به لما تناوله صحّا

زياد : تعلّلْ قيسُ بالشاة عساها تُذهبُ الحُبَّا
فما العَرّافُ بالمجهو ل لا علمًا ولا طبّا
ولم تَعلَمْ عليه البيد تدجيلا ولا كذْبا
طبيبٌ جَرّبَ اليابسَ فى الصحراءِ والرَّطْبا
فذقْ قيسُ ولا ترتبْ بما قال وما نَبَّا
وتلك الأمُّ يا قيس أطعْها تطِعِ الربّا

قيس : زياد اسمعْ وكن عونى وخلِّ اللومَ والعتَبا
إذا ما لم يكن بُدٌّ فإنى آكُلُ القلبا

زياد : قيسُ يبغى القلبَ يا بلهاءُ أين القلب أينا ؟

بلهاء : هو عندى ويسيرٌ ما اشتهى قيسٌ علينا
هو فى الشاة

زياد : هَلُمّى أخرجى القلبَ إلينا

بلهاء : القلبُ ! أين القلبُ ؟ أين يا تُرى وضَعتُهُ ؟

ياويحَ لى ! نسيتُ أنى بيدى نزعتُه !

قيس : وشاةٍ بلا قلبٍ يداوونى بها

وكيفَ يُداوى القلبَ من لا له قلب !

[تسير بلهاء الى الحى و يظهر صغار من ناحية الحى يلهون فى طائفتين وإذ تقع أبصارهم على قيس وزياد تتغنى كل طائفة بغناء]

الطائفة الأولى :-

قيسُ عُصفورَ البوادى وهَزارَ الرَّبواتْ

طِرتَ من وادٍ لِوادى وغمرتَ الفلواتْ

إيه يا شاعرَ نجدِ ونجىَّ الظَّبَيَاتْ

أضمرِ الحبَّ وأبدِ لأعفّ الفتياتْ

الطائفة الثانية :

قيسُ كَشَّفتَ العذارى وانتهكتَ الحُرُماتْ

ودمَغْتَ الحىَّ عارا فى السنينَ الغَابراتْ

قدذكرتَ الغَيْل دعوى واصطنعتَ الخلَواتْ

صَليتْ ليلى ببلوى منك دون الفَتياتْ



وشاة بلا قلب يدا ونى بها وكيف يداوى القلب من لا له قلب

[يلتقط قيس بضع حصوات من الأرض و يهم أن
يعصب بها الصغار ثم يتردد فينثر الحصى من يديه ، بينا
يظهر من جانب الطريق الآخر ابن عوف وكاتبه نصيب]

قيس ، [مناجيا نفسه] :

قيس لا ، سامحْ صغارا لا يُحسُّون الخطيئه
إنهم فيما أتوه ببّغاواتٌ بريئه
لُقِّنوها كلماتٍ نَزِهاتٍ أو بذيئه

زياد [وهو يصرف الصغار] :

إذهبوا عودوا إلى آبائكم واذكروا قيسا بخير يا خُبُث
إذهبوا أوحوا إلى أترابكم وليُبَلِّغ حَدَثًا منكم حَدَث
سيطرَ الحبُّ على دنياكمُ كلُّ شيء ما خلا الحبَّ عبث

[يجرى الصغار أمام زياد مضطربين ثم يختفون عن
الأنظار ، بينما يستلقى قيس على الأرض فى شبه إعياء]

ابن عوف الى نصيب ، وزياد يطارد الصغار :

انظرْ نُصيبُ ، ضجةٌ وصبيةٌ ورجل يرمى الصغار بالحصى

نصيب : أرى أميرى نشأً تعلقوا بابن سبيلٍ مُتعَبٍ واهى القُوى

ابن عوف : بل امض سَلْ

نصيب [معترضا زياد] : من الفتى؟

زياد [لنفسه وقد رأى ابن عوف] : ماذا أرى؟ هذا أميرُ الصَّدَقات ها هنا

[ثم يرد على نصيب] :

قيسُ إمام العاشقين

ابن عوف : أيهـــم فهم كثير، كل قيس يهوى

زياد : أجلْ ولكنّ الذي تُبْصِرهُ أرفعُهم ذكرا وأعلاهم سنى

ابن عوف : لعـله قيسُ الذي نعــرفُه لقد رَويت شعرَه فيمن روى

فأين ظــلُّه زيادٌ ؟

زياد : أنا ذا أنا الذي يتبعُه حيثَ مشى

ابن عوف : أنت الذي تهدى لكلِّ قريةٍ مُجاجــةَ النحل ونفحةَ الرُّبا

ما بالُه يَطا الترابَ حافيــاً ويقطعُ البيــدَ مُمَزَّقَ الرِّدَا

خُذ يا نُصَيبُ بُردتى فغطِّه لا يلحقنّه من العُرى أذى

زياد : إحفظ عليك البُردَ يا أميرُ لا فقرَ إليــه بابن سيّد الحمى

إن لقيس من ثياب الوشى ما يُفْنى به العمرَ وما يعيى البِلى

ابن عوف [مناجيا نفسه] :

ياويحَ قلبي ما خلا من قسوةٍ ما بالُه رَقَّ لقيسٍ ورثى

[يقبل على قيس] :

قيسُ، بُنَيّ

زياد : هو في إغماءةٍ من وَجْده وما أظنه صحا

[يسمع صوت حاد من ناحية نجد . ويتعالى الصوت قليلا قليلا حتى يظهر الحادى ومن ورائه قافلة تسير إلى المدينة ثم يذوب الصوت قليلا قليلا حتى ينقطع]

أنشودة الحادى :

يا نجدُ خُذْ بالزمامْ ورحِّبِ
سِرْ في رِكاب الغمامْ ليثربِ
هذا الحُسينُ الإمامْ ابنُ النبي
النورُ في البيد زادْ حتى غَمَر
أُحْدُ الحيا في الوهادْ أُحدُ القمر
أُحدْ جمالَ البوادْ زينَ الحضَرْ
ابن النبي

ابن عوف : سمعتمُ؟ يا لكِ من رنةِ حادٍ مُطربِ

زياد : ياليت شعرى ما الركا ب مَنْ لواءُ المَوكب

نصيب : قد بين الحادى فقل أصمٌ أنت أم غبى؟

هذا إمامُ العرب هذا الحُسينُ ابن النبى

هذا الزكىّ ابنُ الزكىّ الطيّب ابنُ الطيب

عارَضَنا الحسينُ فى طريقه ليثرب

هذا سنا جبينه مِلْءَ الوهاد والرُّبى

قد جلَّ حاديه جلا لَ القارئ المطّرِب

ابن عوف [هامسا إلى نصيب] :

نصيبُ، صه لاتسلكنْ بنا مسالك التهمْ

ولا تَظاهرْ بالهوى لوارث البيت العَلَمْ

احذرْ جواسيس ابن هنـد وعيونَ ابن الحَكَمْ

نحن رجالُ دُولةٍ قوّامةٍ على الأمم

ليس بعينها عمى ولا بأذنها صَمَمْ



« نصيب صه لا تسلكن بنا مسالك التهم ! »

تسمع فى ظل القصو رهمس رعيانِ الغنم

[إلى زياد مشيرا إلى قيس] :

زياد، انظرْ فما انفكَّ صريعَ الوجدِ والذكرى
كما مرّ بـ الركب الـ محسينيُّ به مَـراً
فلم يشغَلْ له بالا ولم يوقظ له فكرا

زياد : رويدا سيدى مهلا ولا تستغرب الأمرا
لقد سقناه بالأمس لحجِّ الكعبةَ الغرّا
فلما لمس الركنَ ومسّت يدهُ السّترا
وقلنا الآنَ من ليلى ومن فتنتها يبرا
سمعناه ينادى اللــه من ساحته الكبرى

ابن عوف : وماذا قال ؟

زياد : ما تــابَ من العشق ولا استبرا
ولكن قال : يا ربّ ملكتَ الخير والشرا
فهاتِ الضرّ إن كان هوى ليلى هو الضرا

وإن كان هو السحرَ فـلا تُبطلْ لهـا سحرا
ويا ربّ هَب السلوى لغـيرى وهب الصبرا
وهبْ لى مَوْتةَ المُضنَى بهـا لا ميتـةً أخـرى

[يقبل على قيس ويميل عليه بحنان] :

حنانيك قيسُ إلامَ الذهول أفِقْ ساعةً من غواشى الخَبَلْ
صليلُ البغال ورَجْع الحُدَاء وضجّةُ رَكْبٍ وراء الجبَلْ
وحادٍ يسوق رِكَابَ الحُسَيْنْ يَهُزُّ الجبالَ إذا ما ارتجلْ
فلم يبقَ ماشٍ ولا راكبٌ على نجـدَ إلا دعا وابتهَـلْ
فقُمْ قيسُ واضرعْ مع الضارعين وأنزِلْ بجَـدِّ الحسيْن الأمل

[يسمع صوت حاد آخر قادما إلى نجد من ناحية يثرب ، على رأس قافلة أخرى ، وتمرّ هذه القافلة كما مرت الأولى]

أنشودة الحادى :

هلا هلا هيّـا * إطوى الفلاطيّاً * وقربى الحيّـا * للنازح الصّب
جلاجلٌ فى البيدْ * شجيّـةُ الـترديدْ * كرنّة الغـرِّيدْ * فى الفنَن الرطْب

أناح أم غنّى * أم للحمى حنّا * جُلَيْجلٌ رنّا * فى شُعَب القلب
هلاهلا سيرى * وامضى بتيسيهر * طيرى بياطيرى * للماء والعشب
طيرى اسبقى الليلا * وأدركى الغيلا * العهدَ من ليلى * ومنزلَ الحبِّ
بالله يا حادى * فتِّش بتوْباد * فالقلبُ فى الوادى * والعقلُ فى الشِّعب
يا قمرا يبدو * مطلعُهُ نجدُ * قد صنع الوجدُ * ماشاء بالركب

[يفيق قيس ثم يتلفت مصغيا إلى الحداء]

قيس :

ليلى، مناد دعا ليلى فخفّ له نشوانُ فى جنبات الصدر عربيدُ
ليلى، انظرى البيدَ هل مادت بأهلها وهل ترنّمَ فى المزمار داودُ
ليلى، نداءٌ بليلى رنَّ فى أذنى سحرٌ لعمرى له فى السمع ترديدُ
ليلى تَرَدّدُ فى سمعى وفى خلدى كما تَرَدّدُ فى الأيك الأغاريدُ
هل المنادون أهلوها وإخوتها أم المنادون عشاقٌ معاميدُ
إن يشركونى فى ليلى فلا رجعت جبالُ نجد لهم صوتا ولا البيدُ
أغيرَ ليلاى نادوا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالى الخُرَّدُ الغيدُ

إذا سمعتُ اسمَ ليلى ثُبتُ من خَبَلى   وثابَ ما صَرعتْ منى العناقيدُ
كسا النداءَ اسْمها حسنا وحبَّبه   حتى كأن اسمَها البشرى أو العيدُ
ليلى ، لعلّى مجنونٌ يُخَيَّلُ لى   لا الحىُّ نادوا على ليلى ولا نُودوا

ابن عوف :

لا تكتئبْ وتعالَ يا قيسُ استرحْ   مما تكابد فى الهوى وتلاقى

قيس :

هل أنت آسٍ يا أميرُ جراحتى   أم أنتِ من سحر الصبابة راقى؟

ابن عوف :

بل من رُواتكَ قيسُ من زمنٍ مضى   لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

قيس :

قل للخليفة يابنَ عوف فى غد   من ذا أباح له دمَ العشّاق
هَدرت حكومتُه دمى فتحرَّشتْ   بدمٍ على سيف الجفُون مُراق

ابن عوف :

أَرضيتنى عند الخليفة شافعا
يا قيس؟

قيس [فى أنفة] :   لا والواحد الخلاق

بل عندَ ليلى فامض فاشفع لى لدى ليلى وناشد قلبها أشواقى

جئها فذكِّرها العهودَ وحفظَها واذكرْ لها عهدى وصف ميثاقى

ليلى إذا هى أقبلتْ حقنت دمى كرما وفكَّت يا أميرُ وَثاقى

ابن عوف .

الآنَ قيسُ اذهبْ فبدِّل حلةً وتَرَدَّ غيرَ ثيابكَ الأخلاقِ

فالصبحَ تدخلُ حىَّ ليلى قيسُ فى ركبى وبين بطانتى ورفاقى

قيس [إلى زياد] :

أسمعتَ ماقال الأميرُ؟ زيادُ، طرْ نحو الحمى بجَنَاحَى المشتاقِ

إذهَبْ وسلْ أمى أعزَّ ملابسى من كل شامىٍّ وكلِّ عراقى

واذكرْ لها فضلَ الأمير، ولم تزَلْ نِعَمُ الأمير قلائدَ الأعناقِ

[يسير زياد نحو الحى بينما يتمسح قيس بابن عوف كالطفل] :

شكرا لصُنعكَ يا أميرُ ودُمتَ مَقصُودَ الرحابْ

عجِّلْ أمير

ابن عوف [ضاحكا] : بل انتظرْ أنسيتَ يا قيسُ الثيابْ ؟

قيس : مَن مُبلغٌ أمى الحزينةَ أنّ عقلى اليومَ ثاب؟
ومَن البشيرُ إليكِ يا ليلى بقيس فى الركاب؟
اليومَ أهلا بالحيَاة ومرحبًا بكَ يا شبابْ

« ستار »

الفصـــل الثـالث

« قطعة من الصحراء تبدو فى يسارها طائفة من مضارب بنى عامر ممتدة »
« إلى ما وراء اليسار على سفح جبل توباذ — خباء مضروب إلى يمين »
« هذه الطائفة من المضارب كأنه نهاية خيام الحى — على اليمين »
« أشجار بان يقف فى ظلها ابن عوف وحاشيته وقيس وزياد »

ابن عوف : تراءى الحىُّ للركْبِ ‏ ‏ وأشرَفْنا على الشِّعبِ
أفِـقْ قيسُ أما فى رؤ ‏ ‏ يةِ الخيْماتِ ما يُصبي
ألا تهتِـفُ بالشكوى ‏ ‏ إلى ليـلى وبالعتْـب

قيس : ديارَ الحى من ليـلى ‏ ‏ سلامٌ من شَجٍ صَـبِّ
على الحى على الدار ‏ ‏ على ليـلى على الحبّ
غـدا الركْبُ على طيبٍ ‏ ‏ كريح المنـدَل الرَّطب
فياليـلى عسى اليـوم ‏ ‏ أبُـلُّ الشوقَ بالقرب
عسى الخِطْبَـةُ لا تـنز ‏ ‏ لُ فى ناديـك كالخَطب
عساهـم لا يقـولون ‏ ‏ فـتى مشـترَكُ اللـب
ولا يذهبُ إحسـانى ‏ ‏ ولا يبـقى سـوى ذنبي

يقولون بها غنّى لقد غنّيتُ من كربي
سلي تُربك كم مرّغت خدّيّ على التُّرب
وكم جُدْتُ على الرمل ولم أبخل على العُشب
بدمعٍ مثل دمع الثُّكل مغروفٍ من القلب

[يتطلع ابن عوف إلى ناحية الحي].

ابن عوف : قيسُ انتبهْ قيس

قيس : مَن المنادى؟!

ابن عوف : الحيُّ في السلاح سَدَّ الوادي
وأنت قيسُ بعدَ حين غادي على خصوم لُدُدٍ شِداد
فالقَ الرجال صاحيَ الفؤاد لا تلقَهم مُضيِّعَ الرشاد

قيس [متطلعا كذلك] :

أتُبصرُ يابنَ عوفٍ حيَّ ليلى تدجّج في السلاح ولا تراها
فما لي لا أحقِّقُ غيرَ ليلى وإن كثرَ السوادُ لدى حِماها
لقد ألقى هوى ليلى حجابا على عيني فلستُ أرى سواها



أتبصر يابن عوف حى ليلى تدجج فى السلاح ولا تراها

وبغضت النصيحَ إلىّ ليلى وسدّ مسامعي عنه هواها

[يسمع من بعيد ومن ناحية الحي لجب وقعقعة
سلاح ويقترب الصوت ويتعالى شيئا فشيئا]

أرى حيّ ليلى في السلاح ولا أرى سلاحا كهجر العامرية ماضيا
دمي اليومَ مهدورٌ لليلى وأهلِها فِداءٌ لليلى مُهدَراتٌ دمائيا
لكَ اللهُ! ماذا منك ياليلَ طَاف بي وما ذلك الساقي وما ذا سقانيا
دعوني وما عندي لليلى أقولهُ لليلى وأستنشي الذي عندها ليا
أهيمُ فأستعدي نهاري على الجوى وأقبعُ ليلى أستجيرُ القوافيا
(فما أُشرِفُ الأيفَاعَ إلا صبابةً ولا أُنشدُ الأشعارَ إلا تداويا)
إذا الناسُ شَطرَ البيت ولّوا وجوهَهم تلمستُ ركنيْ بيتها في صلاتيا
(أُصلّي فما أدري إذا ما ذكرتُها أَثنْتين صلّيتُ الضُّحى أم ثمانيا)
توارتْ وراءَ الجمع ليلى نخانها فَمَ كابتسام الصبح ياأبى التواريا
وطيبٌ به خُصّتْ حوى الطيبَ كلّه فقلّهُ الأفاحى أو فقله الفواغيا
فأحسستُ من فرعي لساقي هَزّةً كأنّ عِياناً منك لاقيا عيانيا

دعونا وما يبق إذا ما فنيتمُ فوالله ما شيءٌ خلا الحبّ باقيا
مشى الحبُّ فى ليلى وفىّ من الصِّبا ودبّ الهوي فى شاء ليلى وشائيا
وإنى وليلى للأواخر فى غدٍ لشُغلٌ كما كنا شغلنا الأواليا

[يبدو على وجهه الاصفرار والجهد ثم يترنح
فيتلقاه زياد ـ تسمع أصوات الحى من قريب]

ابن عوف: زياد أدركه أدركْ إنى أرى الداءَ عادهْ
لقد تضاءَل قيسٌ واصفرّ مثلَ الجراده
وليس قيسٌ بمُلقٍ إلا إليك قياده
الآن أسعى لقيسٍ سعيا أخافُ فسادَه
فَقِل بنا وبقيسٍ حتى يُصيبَ رشادَه

[يحملون قيسا و يختفون به وراء شجر البان ، وتظهر طلائع الحى
من اليسار وعلى رأسها المهدى ومنازل ، وكلهم شاكى السلاح]

المهدى :
يا قومُ إن البغىَ شرٌّ مركبُهْ والخيرُ فى جانب من يُجنِّبُهْ
هذا ابنُ عوفٍ قد أظلّ موكبُه وإنّ قيسًا فى الرّكاب يصحَبُهْ

جاء يرومُ صهرَكم ويَخْطُبُهُ   وقد علمتمْ كيف ساء مذهبُه
وكيف طال بابنتى تشببُهُ

صوت : كِلْه إلى سيوفِنا تؤدِّبُهْ   لقد وجدناه وكنا نَرقُبُه

المهدى : لا ، دمُ قيسٍ دمُنا لا تقربُهُ   يَكفيه منا أننا نُخَيِّبُه
ونَصرِفُ الأميرَ عما يطلبُه

صوت آخر : شيخَ الحمى لا تضعُف   ولا تَرَدَّدْ وَقِفِ
ذُد عن عقيلة الحمى   وامنعْ حياضَ الشرَفِ
لا تُصْغ للشافع فى   قيس ولا المستعطفِ
ليس ابنُ عوفٍ فى الذى   سعى له بالمنصفِ
أبِالأمير بعد ما   أجار قيسا تحتفى!
لَا تَخْشَ بأسَه ومِنْ   رجالِه لا تَخَفِ.
نحن كعثمانَ وليـ   ـلى بيننا كالمُصحَف

[يظهر ابن عوف وحاشيته من وراء الشجرة ومعهم زياد]

ابن عوف : عِمْ أبا ليــلى صــباحا

المهــدى : عِمْ صباحًا يا ابنَ عوف

ابن عوف : قل لهم يُلْقُــوا الســلاحا ليس ذا مَوْطِنَ خوف

صوت من الحى :

يا بن عَــوف يا أمــيرْ ليس ذا شانَ الوُلاةِ
كيف تَحمى وتُجــيرْ مُســتبيحَ الحُــرُماتِ؟

ابن عوف : عامِرُ يا أجاوِدَ البِطــاحِ وأسمَحَ الناس بُطون راحِ
مالى وللسـيوف والرماح ضَيفٌ أنا، وما من السماح
رَدّك وجهَ الضيف بالسلاح ما جئتُكم يا قومُ للكفاح
بل جئتُ للتوفيق والإصــلاح

[تحدث ضجة فى جانب الحى وتصايح وتهامس
ثم يلقى كثير منهم الســلاح و يغمد الســيوف]

صوت من الحى : يا أبا ليــلى بليــلى جُــدْ لقيــس بالحيــاة
إنه شــاعرُ نجــدٍ ونَجِــىُّ الظَّــبيــات

صوت آخر : قيسُ أخٌ وابنُ عَــمّ وليس أهــلا لــذمّ

نجمٌ أضاء بنجد   سما على كل نجم
هبوه جُنّ بليلى   ليس الغرام بجُرم

منازل [حيث يستقبل الجمعين خطيبا] :

إن قيسًا معشرَ الحى أخٌ   وابنُ عمّ أفمنه تبرأونْ ؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغوا لى إذنْ   ثم ظُنوا كيف شئتم بى الظنون

إنّ قيسًا شاعرُ البيد الذى   لا يُجارَى أفأنتم مُنكِرونْ؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغوا لى إذنْ   ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ

إنّ قيسًا سيّدٌ من عامرٍ   وابنُ سادات ، أفيه تمترون؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغُوا لى إذنْ   ثم ظنوا كيف شئتم بىَ الظنونْ

إنّ قيسًا قد بنى المجدَ لكم   ولنجدٍ أبقيسٍ تكفرون؟

أصوات : لا وربِّ البيت

منازل : أصغُوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إنّ قيسًا كاملٌ فى عقله أو آنستم على قَيس الجنون؟
أصوات : لا وربِّ البيت
منازل : أصغُوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
أنا لم أعدلْ بقيسٍ شاعرًا لا ولا أنتم بقيس تعدِلون؟
أصوات : لا وربِّ البيت
منازل : أصغُوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا فى وُدّى وإعجابى به لا يدانينى الرواةُ المعجَبون
شعرُه يبقى ويفنى غيرُه ليس كلُّ الشعر ترويه القرون
شعرُ قيس عبقرىٌّ خالدٌ ليتـه لم يتخلّلْه المجُون
ولو آنّ المتجنّى شاعرٌ غيرُ قيس أوشك الخطب يهون
رُبَّ شعرٍ قال فى ليلى، به هتف البدْوُ وضجَّ الحاضرون
إننى أخشى عليكم عاره رُبَّ عار ليس تمحوه السّنون

ضجرتْ ليلى وضجّت أمُّها ... وأبوها وتأذّى الأقربون
وغدا كلُّ فتى من عامرٍ ... حين يلقى الناس ، محنيَّ الجبين

أصوات كثيرة : هو ماقلتَ

منازل : إذن ما بالكم ... لم تثوروا ، مالكم لا تغضبون؟
هوذا قيسٌ مع الوالى أتى ... يطأ الحىَّ وأنتم تنظرون
وأبو ليلى امرؤٌ أدرى له ... رِقّةَ القلب وأخشى أن يلين
بعدَ حين يعبث القومُ بكم ... ومن الحى بليلى يخرجون
آن ياقومُ لكم أن تعلموا ... أن قيسًا هتك الخدرَ المصون
قيسُ لم يترك لليلى حُرمةً ... ما الذى أنتم بقيسٍ فاعلون؟

صوت : ماجِنٌ لا بدّ من تأديبه

صوتٌ آخر : إنّ بالسَّوْط يُربَّى الماجنون

صوت : نأخذُ الحىَّ عليه

آخر : ولنقف ... دون ليلى وحماها كالحصون

منازل : حلّلَ السلطان بالأمس لكم دمَ قيس ما الذى تنتظرون
صوت : حلّل السلطان بالأمس لنا دمـــه !
أصوات أخرى : إنّا بقيس فاتكون

[ضجيج واندفاع]

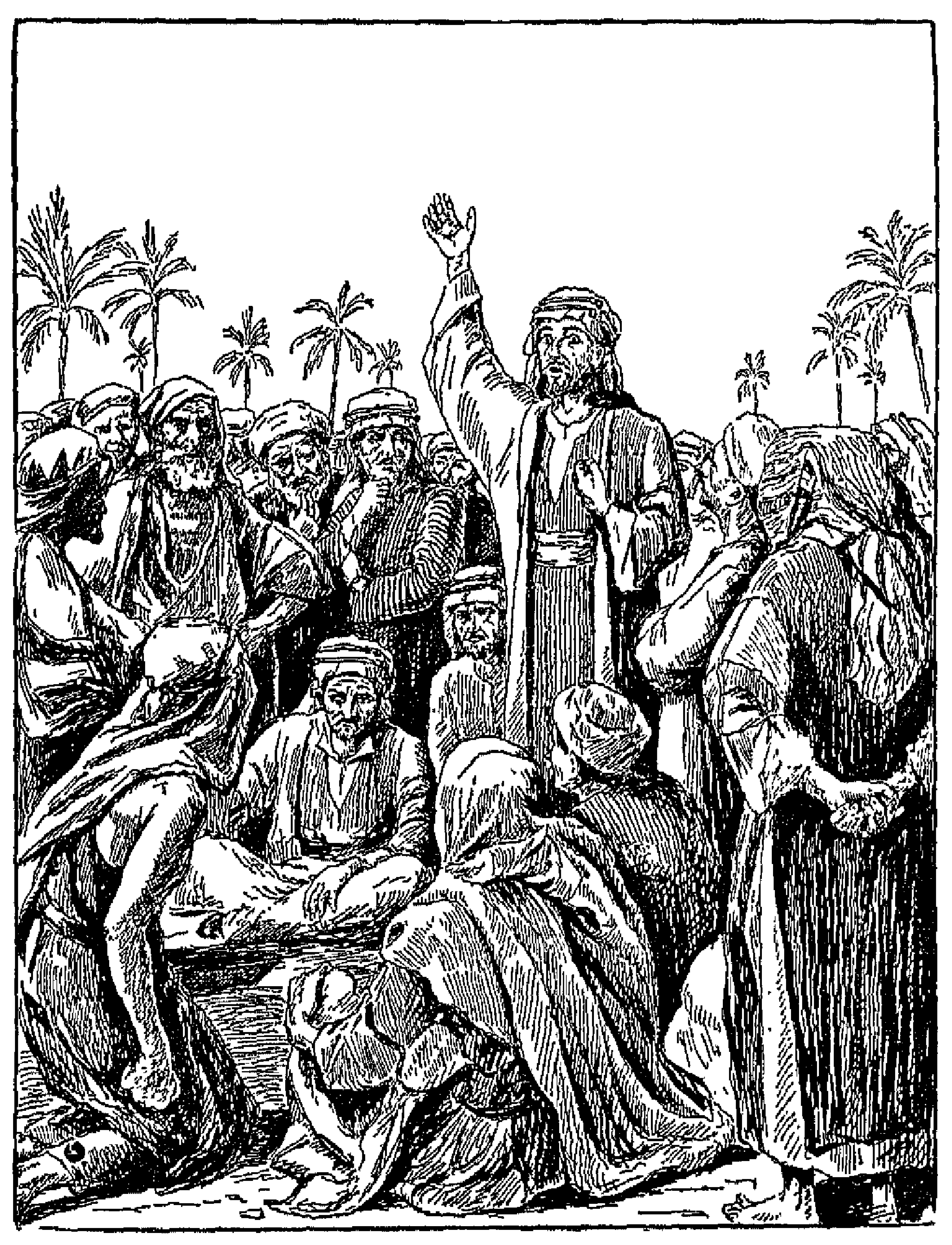
صوت : مُناز، يابنَ العم ماهذا الخبرْ رعت قيسًا بجعلتَه القمرْ
والآن أغريتَ بقتله الزُّمَر كفعل جزّار اليهود بالبقر
برّأها من العيوب وعَقَرْ

[يصعد بشر منبراً للخطابة فيجتمع حوله جماعة من الناس] :

قائـل : ارجعوا ياقومُ هـذا منبرٌ وخطيب
[يسأل أحدهم] : ليت شـــعرى من يكونْ
آخـر : أوَ أعمى أنت هذا بِشْرُ
آخـر : هـــل يحسن الخطبــةَ بشرٌ ويُبين

[يحاول منازل أن ينسلّ من الجماهير] :

بشـر : قف منازِاسمعْ سمعتَ الرعدمن جانبىْ صاعقةٍ فيهـا المَنون
وسمعتَ الذئبَ فى جَوْز الفَلا وسمعتَ الليثَ فى جوف العرين



حلل السلطان بالأمس لكم دم قيس ما الذى تنتظرون ؟

أخطيبٌ أنت أم خطبٌ وإن لم تَهُن والخطبُ أحيانا يَهُون

مناز[صائحا]: بشر ،

بشر : قــف !

منازل : مالك يا بشرُ ولِى؟ إن حربَ الأهل والصحب جُنون

بشر : لِمْ إذن حاربتَ قيساً لم تصن حرمةَ ابن العم أو حقَّ الخدين؟

منازل : قلتُ بشرُ الحقّ

بشر : خلِّ الحــق ما أنت والله عــلى الحق أمين

إنمــا أنت لقيس حاســدٌ منطوى الصدر على الحقد المَهين

كلمــا حدّثتَ عنه عامرًا قرأتُ فى وجهــك الداءَ الدفين

ترســلُ الزفرة تتلو أختهــا وتَفُشُّ الصــدر من حين لحين

يا منازِ يابن عمّى أصغ لى أنت دونٌ أنت دون أنت دون!

منازل : دعونى

بشر [من المنبر]: دعونى فلا بدّ لى

رجل : أتاتك

بشر : لا بــدّ أن أقتــله

منازل : دعــونى

بشر : دعــونى

رجل : دعــوه اتركوه

آخر : ومن كتّفَ النذلَ أو كبّله ؟

منازل : دعــونى

رجل : دعــوه

آخر : كلا البطلين يقولُ الوعيدَ ولن يفعله

بشر : دعــونى

رجل : تقــدّم

منازل : دعــونى

رجل : انطــلق

بشر : دعــونىَ

رجل : جئــه

منازل : دعــونى

رجل : آمش له

آخر : تنحّوا وخلّوا سبيلَيْهما ولا تخشَوا الوقعةَ المُقبلهْ

بشــر : منــازلُ فى عقــله كاملٌ

منازل : وعقــلك يا بشــرُ ما أكمله

بشــر : أتنزو على الحى نزو الديوك ونقفزُ كالأكبُش المُرسـله

وتفلقُ رأسى كرُمانة وأفـلقُ رأسـك كالحنظله

فماذا يردُّ عليـك العويلُ وماذا انتفـاعى بالـولوله

زياد : منازلُ كنت كثير الكلام ووالله ما قلتَ إلا الكذبْ

صوت : أتزعُمــه كاذبا يا زيادُ وقد زاد عن حُرُمات العرب

زياد : رويدك لا تخدع يا فتى ولا تأخذ الأمرَ دونَ السبب

فلم يبغ إلا خداعَ الجموع . وجلْبَ الظنون وخلق الريب

وأثر فيـكم وفى آخرين وأفـرغ فيكم سُمـومَ الرِّيَبْ

صوت : منــازلُ دافعَ عن سُـنّة مُعظّمةٍ من قـديم الحِقب

زياد : تأمل منازلُ سُخْطَ الجموع وجهلَك ما ذا عليـم جلَبْ

أجل قد غضبتَ ولكنما لنفسك ليس لليلى الغضب

تحضُّ على قتل قيسَ الرجالَ لتحظى بليـلى إذا ما ذهب

أصوات : يُرِيدُ ليحظى بليلى؟

زياد : نعـــم

صوت : تكلمْ

صوت آخر : أبِنْ

ثالث : إنّ هذا عجب

زياد : أَلَمْ يَكُ يَغشَى النَّدِىَّ ويطلب لَيلى أشــدّ الطلب

صوت يخاطب المهدى :

إذن كان يخطب ليلى؟

المهدى : نعـــم

صوت : إذن قد تجنَّى

صوت آخر : إذن قــد كذب

زياد : منازلُ ، قل لهـمُ كم ضرعْـــتَ لليلى وكم أعرضتْ لم تُجِبْ

صوت : منازلُ ، اخدعْ وغُشَّ غيرى

آخـــر : قد جازَ إلا علىَّ كذبُكْ

ثالث : ما أنتَ إلا جسِو شـقِىٌّ تحبُّ ليــلى ولا تُحبُّــك

[تحدث ضجــة حول منازل ويقف ثلاثة رجال
فى ركن قصى من أركان المسرح يتحــدثون]

الأول : قد اختلف الحىّ فى أمر قيس وليلى فكلٌّ له مذهبُ
وأنت إلى أى رأى تميل وأىَّ الفريقين تستصْوب
الثانى : إذا صدقتْ نظرتى فى الأمور ولى نظرةٌ قلّما تكذِب
منارلُ غادٍ على خيبةٍ وقيسُ على فضله أخيب
وقد يُخفقان ويلق النجاحَ عريب له فيكمُ مأرب

الأول : غريب ؟

الثانى : أجل من نواحى ثقيف

الأول : ومن ذاك ؟

الثانى : وردُ

الأول : وما يطلب؟

الثالث : رأيناه فى الحى يمشى الحياء وقيل أتى عاقرا يخطُبُ
الأول : وليلى ابنةُ الشيخ ما رأيُها أما من حسابٍ لها يُحسب؟
الثانى : أراها وإن لم تخطَّ الشبابَ عجوزا على الرأى لا تُغلب
تصونُ القديمَ وترعى الرميمَ وتُعطى التقاليدَ ما توجب
وبالجاهلية إعجابُها إذا قل بالسلف المعجب

ومن سُنّة البيد نفض الأكف — من العاشقين إذا شبّبوا
فلا تعجبوا إن جرى حادثٌ — يُحدّث عنه ويستغرب
وإن رضِيَتْ وردّ بعلا لها — وقيسُ الأحبُّ لها الأقرب
فيا طالما التمست مهربا — وأرض ثقيف هي المهرب

منازل : بني عامر لا تُضيعوا الحُلومَ — فإن الأناة بكم أجملُ
هبُّوا ليَ آذانكم إنني — أجِدٌّ وصاحبُكم يَهزل
خطبتُ وأخطبُ ليلى غدًا — وما ليَ يا قومُ لا أفعل
وقد تُعرِضُ اليومَ ليلى فلا — أَضيقُ، عسى في غدٍ تُقبِل
فما قيسُ أجدر مني بها — ولا هو خيرٌ ولا أفضل

زياد : إليك منازلُ ! لا تقترِنْ — بقيس قد اختلف المنزلُ
ولا يستوي الشاعرُ العبقريُّ — ومَن هو من باقل أبقلُ

منازل : وما أنت ؟ بيِّنْ لنا يا زياد

زياد [ممسكا بذراع منازل] : ستعلم منِّيَ ما تجهل

هلمَّ مُناز، هلمَّ الصراعْ! ودّعْ ضلوعَك وأنعَ الذراعْ

منازل: خلِّ زيادُ خلِّ عن ذراعى

زياد: سألتَ ما أنت؟ فاصغِ، راعِ:

إنى أنا مُمزِّقُ الأضلاع

[ثم يجرّه من ذراعه و يمضى به إلى خارج المسرح]

صوت: ماذا يكون يا ترى؟

آخر: هيُّوْا نرى هيوا نرى

آخر [وهم يتدافعون]:

زيادُ غيرُ هازل

آخر: نُوحوا على منازل

آخر: حمامةٌ وبازى

آخر: هلكتَ يا منازِ

آخر [من بعيد]: اهرب من البرازِ

[يخلو المسرح الآن إلا من المهدى وابن عوف
ونصيب ثم تسمع صرخة من وراء الشجر]

المهدى: ما بقيس يابنَ عـــوف ؟

ابن عوف: إنـــه مُعـــمى عليـــه

المهدى: قيسُ لا بأسَ عليـــك كبِّروا فى أُذْنيـــه

[صوت من وراء الشجر]:

الله أكبر الله أكبر

ابنُ عوف [لنفسه]:

سُدًى كبِّروا ما أُذْنُ قيس مفيقةً وإن سكبوا فيها أذانَ بلالِ

ولكنْ على ليلى يُفيقُ وشِبهِها إذا ما بدتْ ليلى بشكل غزالِ

ويصحو على ليلى إذا رُدِّدَا اسمُها وراءَ بُيوتٍ أو وراءَ رِحالِ

المهدى: دَمُ الوُدِّ والقُربَى وإن كان ظالمًا عزيزٌ علينا أن نراه يسيلُ

وإنى لإنسانٌ وإنى لوالدٌ ولى مذهَبٌ فى الوالدين جميل

فرفقًا بقيس يا أميرُ ونَحِّـه بعيدا لعل الشَّر عنه يزول

ابن عوف: أناةً أبا ليلى وحِلما ولا يَكنْ عليك لطغيان الظنون سبيلُ

رددتم ركابى واتهمتم زيارتى وأجلبَ فِتيانٌ وضجَّ كهول

تأمل تجدْ جَمعا مَغيظا وكثرةً تصولُ وما تدرى علامَ تصول

رءوسٌ تنزّى الشرُّ فيها وراءَها نفوسُ ذئاب ماالجنّ عقول
تَطَلَّب أن يُلقى إليها بجُثّة على غير جوع أو يُساقَ قتيل
نواظرُ ما يأتى به اليومُ من دم و إن لم يُساورْها صدًى وغليل
نزلتُ فلم أُكرَمْ فهل أنت مُتبعى وقومُك نارَ الطَّرْد حين أميل
أَبَيتُمْ علىّ القولَ قبل استماعه فلم تُنصفوا والمنصفون قليل
فهل لى أبا ليلى بناديكَ وقفةٌ فإن الذى قد جئتُ فيه جليل
وما أنا مرءُ السّوء أو رجُلُ الأذى ولكنْ سفيرُ خَيّرٌ ورسول
ولم أتخذْ جاهَ الأمور ذريعةً ألا إنما جاهُ الأمور يزول
المهدى: بقيتم بخير ياولاةَ أُمية ولازال يقوى ركنُكم ويطول

[مشيرا إلى باب الخباء] :

هنا مجلسٌ ناوِى إليه لعلنى أقولُ صوابا أو عساك تقول
وثَمَّ ترى ليلى وتسمعُ قولَها وليلى لها رأىٌ يُساقُ جميل

فسلها عسى أن نهتـدى ما جوابُها
إباءٌ وردٌّ أو رضى وقبـولُ؟

[يهم ابن عوف بخلع نعليه] :

المهدى : أتخلَعُ نعليك! لا يابنَ عوف ... نَشَـدتُك بالله لا تفعـل
أتمشى إلى مـنزلى حافيـا ... فديتُك، من أنا! ما منزلى!

ابن عوف : خلعتُهما وانتعلتُ الترابَ ... إلى خَيمة السيِّد المُفضِل

نصيّب [متدخلا] :

دعْه يا مهدىُّ يفعل ... إنمـا يَـرمِى لمعـنَى
كالحسـينِ بنِ علىٍّ ... هـو بالعشّاقِ يُعْـنَى
الحُسـين انتعل التر ... بَ إلى والد لُبنَى
فـرآه حافيـا فى ... سـاحة الدار فَحُنّـا
قال لا أملِك يابن الـ ... ـمصطفى بنتاً ولا ابنا
أنت فى الدار أميرٌ ... فبـما شئتَ فمُـرنا

لنفسـه : يا دهر دُر بمـا تشا ... ويا حوادثُ اهزلى

ويـا وظيفـةُ اعـزُبى ويـا جـرايةُ ارحـلى
يبـغى ابنُ عـوفٍ أن يكو ن كالحسين بن علىّ!

[يدخلان وينادى المهدى] :

هو الضيفُ ياليلَ هاتِ الرُّطَبْ وهاتى الشِّوَاءَ وهاتى الحَلَبْ
وهاتى من الشـهد ما يُشتَهى ومن سَمْنَةِ الحىّ ما يُطَّلَبْ
فما هو ضيفٌ ككلّ الضيوف ولكنْ أميرٌ كريمُ الحَسب

ليلى [وراء حجاب] :

أبى ألف لبَّيـك

ابن عوف : لا بل حَـفِى فما بى ظَماءٌ ولا بى سغبْ
واعـلَمُ أن القِـرى دِينُـكم وأن أباك جـوادُ العربْ
ولكن طعامىَ

المهدى : ماذا ؟ اقـتَرِحْ

ابن عوف : طعامُ الرسول بلوغُ الأرَبْ

المهـدى : إذنْ فَفِى ليـلى اقرُبى

[تظهر ليلى من وراء الستر] :

تقـــدّمى ورحّـــبي

حـــلّ ابنُ عوف دارَنا

ليــلى : أكرمْ بــه وأحببِ

قــد زارنا الغيثُ فأهــــــلاً بالغــمام الصَّــيِّب

ابن عوف : أهــلاً بليلى بالجمــا ل بالحــجى بالأدب

عشتِ وقيسًــا فلقـــد نوّهتــــما بالعــرب

ليــلى [بين الخجل والغضب] :

أتقرِنُ قيسًا بنا يا أمــيرُ ؟

ابن عوف : ولِمْ لاوقد جئتُ من أجْلهِ

ومَنْ أنا حتىْ أضُمّ القلوبَ وأعطفَ شكلاً على شكله

لقد جمَع الحبُّ روحيكما وما زالَ يجمعُ فى حبــلِه

ليــلى [فى استحياء] :

أجل يا أميرُ عرفتُ الهوى

ابن عوف : فهــلّا عطفتِ على أهــلهِ ؟

[يلتفت إلى المهدى] :

أبا العـامرية قلبُ الفتـاة يقول وينطِقُ عن نُبْله

فأصـغِ لـه وترفّـقْ به ولا يَسْـعَ ظُلمك فى قتـله

المهدى: أأظلم ليـلى ؟ معاذَ الحنان متى جار شيخٌ على طفـله؟

هو الحُكْمُ ياليـلَ ما تحكمين خُذى فى الخطاب وفى فصله

ليـلى : أقيسًا تريد ؟

ابن عوف : نعـم !

ليلى : إنـه مُنَى القلب أو مُنتهَى شغلِه

ولكن أترضى حجـابى يُزَالُ وتمشى الظنونُ على سِدْله

ويمشى أبى فيغضُّ الجبينَ وينظرُ فى الأرض من ذُله

يدارى لأجلى فضولَ الشيوخ ويقتلُنى الغـمُّ من أجـله

يمينا لقيتُ الأمرّينِ من حماقـة قيس ومن جهـله

فُضِحتُ به فى شِعابِ الحجازِ وفى حَزْنِ نجـد وفى سهله

تخذ قيسُ ياسيدى فى حماك

[فى حياء وإباء] : والْقِ الأمانَ على رَحْلِهِ

ولا يَفتكِرْ ساعةً بالزواج ولو كانَ مَرْوانُ من رُسله

ابن عوف : إذن لن تقبلى قيسًا ولن تَرْضَىْ به بعلَا

إذن أخفق مسعاىَ وخاب القصدُ يا ليلى

ليلى : على أنك مشكورٌ ولا أنسى لك الفضلا

وأوصيكَ بقيسَ الخيرَ لا زلتَ له أهلا

لقد يُعوزه حامٍ فكُنْه أيها المولى

[تلتفت إلى أبيها وكأنما تحاول

أن تحبس فى عينها دموعا]

أبى كان وردٌ هاهنا منذ ساعةٍ ففيم أتى؟ ما يبتغى؟

المهدى : جاء يخطُبُ

ابن عوف : ومن وَرْدٌ ياليلى وهل تعرفينه ؟

ليلى : فتى من ثَقيفٍ خالصُ القلب طيِّبُ

أتى خاطباً بعد افتضاحى بغيره وعارى ، أهذا يا ابن عوف يُخيِّبُ ؟

أبى ، أين وردُ الآن ؟

المهدى : عند قرابة من الحىِّ ضمّوهُ إليهم ورحّبوا

فإن شئتِ أرسلنا إليه

ليلى : أبعَث ادعُهُ وجئنا بقاضى نجدٍ اليومَ يكتُب

ابن عوف :

تجاوزت ليلى غايةَ السُّخط فاذكرى عواقبَ رأىٍ قد رأيتِ سخيف

ليلى [متهكمة] :

أكنتُ ابنَ عوف غيرَ أنثى ضعيفةٍ تناهتْ لرأى فى الأمور ضعيف

ابن عوف :

أرى وقفتى يا ليلَ كانت شريفةً ولكنْ جزائى كان غيرَ شريفِ

ليلى :

أنظِّف ثوبى يا أميرُ فطالما ظهرتُ به فى الحىِّ غيرَ نظيف

ابن عوف :

لئن كنت يا ليلى بوردٍ قريرةً فإنى على قيسٍ بجدٍّ أسيف

[ثم يخاطب أباها] :

ألان بحفظ الله يا سيدَ الحمى　　لقد طال لُبثى عندكم ووقوفى

ووُفِّقت يا ليلى

ليلى : لقد كنتَ سيدى　　حليفا لقيس هل تكونُ حليفى

ابن عوف :

سألتِ مُحالًا إنما جئتُ خاطبًا　　لورد القوافى لا لورد ثقيف

[يخرج من باب الخباء ويشيعه
المهدى إلى ما وراء شجر البان]

ليلى : ربّاهُ ماذا قلتُ ماذا كان مِن　　شأن الأمير الأريَحِيِّ وشانى؟

فى موقفٍ كان ابنُ عوفٍ مُحسنًا　　فيه وكنت قليلةَ الإحسان

فزعمتُ قيسًا نالـنى بمَساءَةٍ　　ورمى حجابى أو أزال صِيانى

والنفسُ تعلم أنّ قيسًا قد بَنى　　مجـدى وقيسٌ للمكارم بانى

لـولا قصائده التى نوّهن بى　　فى البيد ماعلمَ الزمانُ مكانى

نجدٌ غدًا يُطْوى ويَفنَى أهله　　وقصيدُ قيس فى ليس بفانى

مالى غضبتُ فضاع أمرى من يدى
والأمرُ يخرُجُ من يد الغضبان
قالوا انظرى ما تحكمين فليتنى
أبصرتُ رشدى أو ملكتُ عِنانى
ما زلتُ أهذِى بالوساوس ساعةً
حتى قتلت اثنين بالهذيان
وكأننى مأمورةٌ وكأنما قد كان شيطانٌ يقودُ لسانى
قدّرتُ أشياءً وقدّر غيرَها حظٌّ يخط مصايرَ الإنسان

« ستار »

الفصل الرابع

المنظر الأول

« حول ديار بنى ثقيف ، فى قرية من قرى الجن ، حيث اجتمعت »
« طائفة منهم للحفاوة بقيس وهو يهيم على وجهه ضالا فى الفلوات ، »
« وبينهم شاب منهم فى شكل إنسى جميل الثياب يتردّى الحرير »
« من فرعه إلى قدمه ، وعلى رأسه عقالان من الحرير المحلى »
« بالذهب ، هو الأموى شيطان قيس — الجميع ينشدون ويرقصون »

نشيد الجن :

هذا الأصيلُ كالذهبْ يسيلُ بالمرأى عجبْ
على الوهادِ والكُثُبْ
الرقصُ يبعثُ الطربْ هلمَّ يا جنَّ العربْ
هلمّ رقصةَ اللهبْ إذا مشَى على الحطبْ
نحن بنو جهنّما نغلى كما تغلى دَمَا
نثور فى الأرضِ كما ثار أبونا فى السما
نحن بنو الجبارِ العلَم المنار

إبليسَ بِكرِ النـار يا عــزَّ من لهُ انتمى
نحن الرُّعُـود القاصـفهْ نحن الرياحُ العاصِـفه
والظلمـاتُ الزاحِفَــه عــرمْـرمًا عــرمْرمَا
لنـا وما لنـا صُـوَرْ نرى ونسـمَعُ البشــر
ولا يَرَوْنَ من حضَرَ منـا ومن تكلّمـا
نقـول حين نصـطدمْ بسـادةٍ أو بِخَــدم
صمـم صمم صمـم صمـم عمّى عمّى عمّى عمّى

هيـــد : فيمَ اجتمعْنا هاهنـا ؟ يا عضرفُوتُ ما الخــبر ؟
عضرفوت : لا أدرى ، تلك ضجــةٌ حضرتُهـا فيمن حضَرْ
فســل أخاك عَسَــرًا
هيـــد : ماذا هنـاك يا عسَـــرْ ؟
عســر : نحن مسوقونَ إلى ما ليسَ تَدرى كالبقــرْ
الأمــوى : بنى الجنِّ فى أرضكم عابِرٌ من الإنسِ يرسُفُ فى ضُرِّه

فعَالوا به واعلموا أنه فتًى نبَّه الشِّعْرَ من قدرِهِ

هيد : وأينَ تُرَى هوَ ؟

آخر : ماذا يكون ؟

الأموى : وماذا يهمُّك من أمرِه؟

ألم تعلموا أنّ لى صاحبا من الإنس أحكُمُ فى شعره

هيد : أجل أنت تُوحى له مايقولُ وتقذفُ ما شئت فى فكرِه

الأموى: إذن فاعلموا أنه عاشق تَملأت البيدُ من ذكره

عاصف: وأعلم أن الهوى واحد حوى المستهامين فى أسْره

وأنّ التى سحرت قلبه مدلّهةُ القلبِ من سحره

الأموى: وإنى لأكْفُلُ ليلى له وأصرِفُها عن هوى غيرِه

سَهِرْتُ على طُهر ليلى الزمانَ

ولم أغمِض العينَ عن طُهره.

صَرَفتُ عن الحب حتى الزواجَ
وما قــدَّسَ اللهُ من ســرِّهِ
ولو أنّ عيني تَشُــقّ القُبُــورَ
سهِرتُ على الحبِّ فى قبرِهِ

عضرفوت : ومن يكون ؟

الأمــوى : قيس .

عضرفوت : من ؟ قيس .

عاصف : وهــل يخفَى القمرْ
الشــاعرِ الذى سحــر والســاحر الذى شــعَر
حَنجَــرةٌ لنــا وتــرْ منهــا وللإنس وتـــر

هبيــد : وما لنــا يا عضرفو تُ ولفتيانِ البشــرْ ؟
وما لقِينــا منهـــمُ ومن أبيهــم غيرَ شـــر ؟

عضرفوت : بنى الجنّ اسمعوا أبكم زكامٌ

جــنى : ولِــمْ ؟

عضرفوت : تَنَذَتْ لَعمرُكمُ الجــواءُ

آخــــر : وما فى الجــوّ ؟

عضرفوت : ريحٌ آدمىٌّ

ففيـــه نتـانة وله ذكاءُ

إذا البشرىّ مرّ على يوما فقـد مرّت علىّ الخُنْفَساء

جنى : أجل بعداوةِ البَشَر ابْتُلينا وطال بهـا التـبرّمُ والعَناءُ

مضى بالكبر إبليسٌ أبـونا وكلُّ تراثِ آدمَ كبرياء

يَعيب رجالُهـم فيقال عبنا وتَدْفِنُ عارَهَا فينـا النساء

وإن عَجَـزَ المطبّبُ قال داءٌ مـن الجنّى ليس له دواء

وإن قَفَزت صغارهمُ فزلّت فمنّـا معشرَ الجن البـــلاء

وخفنا من أذاهم فاحتجبنا فما عصم الحجاب ولا الخَفاء

وكـم متعـوّذٍ بالله منـا تَعـوذ الأرضُ منـه والسماء

عضرفوت : وقد نشكو من الناس التجنى وننسى ما جناه الأنبيـاء

جـنى : أرُسْلُ الله أيضًا من عدانا؟

عضرفوت : أجل هم فى عداوتنا سَـواءُ

بنى نَخْمًا سليمانٌ وضخمًا ولولا الجن ما نهضَ البناء
بنينا تدمُر الكبرى بأيدٍ فهل تدرونَ ما كان الجزاء؟

جنى : وما كان الجزاء ؟

آخرين : أبِنْ !

حضرفوت : عذاب وسجنٌ ما لمدّته انقضاء
فتحتَ الماء

جنى : تحت الماء ؟

حضرفوت : عانٍ عليه طلاسم وعليه ماء
وفى جوف القماقم لو علمتم

آخرون : وماذا فى القماقم ؟

حضرفوت : أبرياءُ

جنى : ومن ذا زجَّهُم فيها ؟

حضرفوت : أميرٌ علينا لا يُرَدّ له قضاء
نبىٌّ فهو عدلٌ حيثُ يَقضى وملْك فهو يفعلُ ما يشاء

عاصف : قيس يا قومُ منكم ليس قيسٌ من البشرْ
جنى : قيس منا وانما فى بنى عامرٍ ظهر
آخر : إننى قد رأيتُه يتفلى على الشجر
ثالث : وسمعناهُ قد عوى عَوّةَ الجنّ واستتر
رابع : أنا أيضًا رأيته زكب الظبيَ فى السفر

عاصف [متطلعا] : تعالَوْا فانظروا

[يتطلع الجميع حيث ينظر]

جنى : ماذا ؟

آخر : عجيبٌ

عضرفوت : نرى شَبَحًا يُدحرِجُه الفضاءُ

أقيسٌ ذا ؟

عاصف : نعم هوَ فاستعدوا فقد وجب التحفز واللقاء

هيد [لجنى آخر] :

تأمّل قيسًا المُضْنَى تجِدْه من الذَّوبان أصبح كالخَيال

الآخر: لقد ضلّ الطريقَ أما تراهُ   يُصفّق باليمين وبالشِّمال؟
وقد قلَبَ الثيابَ عليه نهجًا   على عاداتهم عند الضلال

[يظاهر قيس فيلتفون حوله وينشدون] :

سلامٌ مَلِكَ الحبِّ   وسُلطانَ المُحبينا
وأهلا وعلى الرحبِ   لقد شُرِّفَ وادينا
أتى الجنّ من الوادى   يُحيُّونك بالورد
حدا ركبَهم الحادى   إلى ناديك من بُعْد

[يتلفت قيس ذات اليمين وذات الشمال] :

ربِّ إلى أين انتهت بىَ السُّرى   وأىَّ واد أنزلتنى يا تُرى
عساىَ فى الشامِ، لعلّى بحزنه   أو أنا بالطائفِ أو أين أنا
وهذه المُسوخُ حولى جِنَّةٌ   أم عمل الوهم وتهويل الكَرى
لا ، أنا صاحٍ

[يتحسس جسمه] :

هذه رِجلِي وذِى   يدى وتلك مُقلتى يَقظَى تَرَى

وِلِم لا أومِنُ بالجنّ وأنْ تكون للجنّة كالناس قُرى؟
لا أدّعى معـرفةً بعـالَم ظاهرُه أكثر منه ما اختفى

[يمسح جبينه و يعيد النظر والتطلع] :

تلك مِنَ الجنِّ لعمرى شِرْذِمَةْ وهـذه خيلهـم المُسوَّمَه
نعامة كالفَرس المطَهَّمةْ وأرنبٌ مُسَرَّجَةٌ ومُلجَمه
وقُنفُذٌ وظَبيةٌ وشَيْهَمه

يا عجبًا كل العجبْ الجنُّ منى عن كَثَبْ
سُودٌ دقاقٌ فى العيو ن كالدُّخانِ فى الحطَب
يَخرُجُ من أفواهها ومن عيونِها اللهب
من كل مَن حال بقَر نيْـه وصال بالذنب

الجان : نَبِيَّ الحبِّ لا تَخْشَ أذًى أو شَرَّةً منا
عَطفْت الطيرَ والوحشا فلِمْ لا تَعطِفُ الجِنا؟
وسَلْ حسّان والأعشى وشيطانَيْهما عنا



نبي الحب لاتخش أذى أو شرة منا

الأموى :

تركتُ ورائى الشامَ لم أنتفعْ به ولا هو من شوقى القديم شفانى
وعدتُ إلى نجد أقاسى صبابتى ووجدى كأنى مابَرِحتُ مكانى
تركتُك ليلى فانفجرت ليـاليا مؤلفـةَ الأشكالِ جدَّ حِسان
فلم يَخلُ سيْرى منك يوماً ولا السُّرى ولم يخـلُ من تمثالكِ القمران
على كل أرض من هواكِ سوارحٌ مَلأْنَ سبيلى أو مَلَكن عِنانى
(وأجهشتُ للتوباذ حين رأيتُه وكبّر للرحمنِ حين رآنى)
(وأذريْتُ دمعَ العين لمـا عَرَفْتُه ونادى بأعلى صوته فدعانى)

[يدنو منه قيس ويتأمله]

قيس [لنفسه] :

ياويح عينى ما ترى : وويح أذنى ما تعى!
وأين عقلى ؟ غاب عنى اليومَ أو عقلى معى؟
الشعر لى مُذ قلتُه من شفتى لم يُسْمَع
من ذا الذى أوحَى به لذا الغلامِ المُدَّعى؟

[يقترب من الشاب ويأخذ فى انتقاده] :

عقالان يمانيا ن مِنْ وَشْى وعِقيان
يُضيئان كلَمْح الشمس فى جِلدةِ ثعبان
وأين الشفَقُ الأحمَرُ من مطْرَفكَ القانى؟
وقد تقربُ فى الرَّوعةِ من أملاك غسّان
وقد تبلُغُ فى الشعر إلى رقةِ حسّان
فما شأنك يا هذا؟

الأموى : وما يَعنيكَ من شانى؟

قيس : أرى سارِقَ أشعارٍ جريئًا ما له ثانى
فقد يُسطَى على بيتٍ وقد يُسرَق بيتان
ولا يَنتحِل الإنسا ن أبياتاً لإنسان
وما أنشَدْتَ من شعرٍ فمن صُنعى وإحسانى
ولم أهتف به بعدُ ولم تَسمَعه أُذنان

فمن أنت ومن أين أنتَ أُذْنَيكَ ألحانى

الأموى : أنا الملقِى عليك الشعرَ مِن آنٍ إلى آنٍ
أنا الهاجس والشيطان

قيس : لا ، لا ، لست شيْطانى

[ثم يناجى نفسه] :
أجل سمِعتُ باسم شيطانى ولكن لم أرَهْ
أبى وأمى حدّثانى فى الليالى خبرَهْ

[يعود إلى خطاب الأموى متردّدا] :
ألستَ أنت الأموىّ

الأموى : لا تَخَفْ أن تذكرَه

قيس : ما أنت إلا صورة فى عصبى مُصوَّره
أو عبثٌ لو كان عقلى حاضرًا لأنكره

قيس : [وهو ينكت الأرض بعوده] :
ويحى أقيسٌ واحد أم نحن قيسان هنا
وأيُّنا الشاعر هذا الأموىُّ أم أنا

أم الـــذى بى وبـــه من عَبَثِ السحرِ بنا
أم أنـــا مجنـــون عَلَىّ حب ليـــلى قـــد جنى

الأموى : قيْس

قيـــس : لبيـــكَ قيس

الأموى : ما أنا قيسٌ

قيـــس : من إذَن ؟

الأموى : قلتُ إنّنى شيطانُهْ

قيـــس : قيس من آدمٍ فما أنت منـــه

الأموى : أنامن قيس عامرٍ وجدانُهْ

قيـــس : أنتوجدانىَ؟ استعذتُ بربى منـــك

الأموى : لا تستعذْ به جلّ شأنُهْ !

هكذا شاء : كلُّ شاعرِ قومٍ عبقرىّ اللسان نحن لسانه

قيـــس [مشيحا بوجهه ومطرقا] :

وصرتُ ينهَى ماردٌ عــلى فمى ويأمرُ
ما للسانى لا يطـــو لُ؟ ما له لا يقصـــرُ؟
ياليت شعرى كيف لا يخـرُجُ منـه الشرَرُ؟

الأموى [واضعا يده على كتف قيس] :

عـلامَ قيس فـيم أنـــــت مُطـرقٌ مُفـكِّرُ؟
فى خـــبرى؟

قيــس : أجل وما صـدقتَ فيما تُخبرُ
ليس لسـانى ماردًا إن لسانى بشَرُ

الأموى : قل وحدك الشعرَ إذنْ

قيــس : تظنـــنى لا أقـــدِرُ!

الأموى : جرِّبْ إذَن قلْ أرنا يا قيسُ كيف تَشْعُرُ

قيــس : وما تُحبُّ؟

الأموى : قريةُ الـــــجنّ وهـذا المَنظـرُ
أليس فيما أنت را ءٍ قيــسُ ما يـؤثّـر؟

قيس : اسمع إذن يا أموىّ

الأموى : إننى أنتظر

قيس : وجوهٌ تَصوّرُ ، وفضاءٌ يزهرُ ، ورمال فى مطارح البصر تزخَرُ ! ، وقريةٌ تموجُ بالجنّ كأنها عَبقَرُ !

الأموى [ضاحكا] :

قهقه ! تعالَوْا واضحكوا !

[تضحك جماعة من الجن] :

قيس [فى غضب] : قه قه . . أمنّى تسخَرُ؟

الأموى : ما هكذا يا شاعر الـــبيد البيُــوت تُكسرُ

جنى آخر : إنك لا تَنظُــمُ يا قيس ولكنْ تنثُرُ!

الأموى : مالك قيسُ مُفحمًا هــذا لعمرى الحَسَرُ!

لَا يُفحَــم الشاعرُ لــــكن يُفحم الشُّوَيْعِــرُ

مالك كالعُود الذى أدبِرَ عنــه الــوتَرُ؟

ما للقــوافى الآنسا ت مِنكَ قيس تنفــرُ؟

كيف ترى لسانك

قيس : الآن عليه حجرُ

أنتَ على مشاعري وشعرىَ المسيطرُ

إن غبت غاب خاطرى وإن حضرتَ يحضُرُ

الأموى : الآن لا تُنكرني قيس وكنت تُنكِر

عجبتَ كيف تختفى الجنُّ وكيف تظهرُ

يا قيسُ هذا عالمٌ طينتُه التجبُّرْ

تطغَى على رائدها صحراؤُه وتغمُرُ

وغاية المُمْعنِ فى نظامه التحيُّرْ

مهما علمت عنه فالذى جهلتَ أكثرُ

قيس : يا أخا الجنِّ لئن كنتَ أخاً لى وخليلاً

أنا فى أعماء أرض لا أرى فيها السبيلا

الأموى : أين تبغى قيس؟

قيس : ليــلى كن إلى ليــلى الدليلا

الأموى : مــل يميناً يا أبا المهــــدىّ ثم امش قليــلا

تجـد المـنزلَ والمـا ءَ الذى يَشفى العليلا

[ينطلق قيس آخذا يمنه مهرولا] :

المنظــر الثــانى

«فى حى بنى ثقيف بالطائف حيث ترى دار ورد على بعد قليل —»

«ورد مصطجع على الرمل وبجانبه يجلس رديق من رفاقه — يقترب قيس»

قيس : إنّ قلبى لمخبرى أنّ هاتيــكَ دارُها

أنا بالطائف الذى قــرّ فيــه قرارها

فى ثقيف تنقّــلى وثقيــف ديارها

ما لساق جررتَهــا فتعــالى انجرارُهــا

ولقلبى يقــول طِب قــد تدانى مزارُهــا

كيف لا أهتدى لليــــلى وفى القلب نارها

ليتَ ليلاىَ نُبِّئَتْ أننى اليــومَ جارها

[يتبين وردا وصاحبه] :

عجبٌ ! هُديتُ الدارَ بعد ضلالة   ما كان شيطانى علىَّ كذوبا
هــذى منازلُهــا وذلك بعلُها   بعثَت إلىَّ ديارُ ليلى الطيِّبا
هذا غريمى وردُ أشقرَ كاسمه   أتَراه ألبس جلدَه مقلوبا
ما بالُه افــترش الأديم كأنه   بغلٌ يُعفِّر فى التراب جُنوبا

[رفيق ورد] :

ورد : أرى من المـدَى القــريبِ   شخصًا يدبُّ نحونا كالذيب
على خُـطاه خَشــيةُ المُريب

ورد : لِمْ لا تقول حَيْرةُ الغريب

لعــله ابنُ سبيـــل   يمـــرُّ بالحى مَـــرًّا
إنى أراه ســـقيا   يجـــرُّ ساقيــه جـرًّا

[ينهض من رقدته قلقا] :

الرفيق : عرفتَ مَن هو ؟

ورد : قيسٌ به الغــرامُ أضـــرَّا

الرفيق : قيس ؟

ورد : أجـــل

الرفيق : كيف أفضى إليك ! كيف تجرا!

ورد : دعنى وقيسا وشانى لعل فى الأمر سرا!

[ينصرف الرجل ويتلاقى وردٌ وقيس] :

قيس : أهذا أنت وردَ بنى ثقيف

ورد : نعم والوردُ ينبتُ فى رباها

قيس : ولمْ سُمّيتَ وردا لم تُلقَّبْ بقُلّام العشيرة أو غَضاها

ورد [فى سكون وحلم] :

وما ضرّ الورودَ وما عليها إذا المزكومُ لم يَطْعَم شذاها

قيس : (بربّكَ هل ضممت إليك ليلى قُبَيْلَ الصبح أو قبلت فاها)

(وهل رفّتْ عليك قرونُ ليلى رفيفَ الأُقْحوانةِ فى نداها)

ورد [بعد فترة وسكون] :

نعـــم ولا يا قيسُ

قيس : بل لا بدّ من لا أو نعمْ

ورد : هبْها نعمْ يا قيسُ هل مع الحلال من تُهَمْ ؟
المرْءُ لا يُسأل : هل قبلَ أهله ؟ وكم ؟
أجسل لقد قبّلتُها من رأسها إلى القدم

قيس [غاضبا] :
تلك لعمرى قُبلةُ الـحُمّى بلاءٌ وسقمْ
أو قُبلَةُ الذئب إذا الـذ ئبُ على الشاة جَثَمْ

[يتراجع قليلا وكأنما يحدث نفسه] :
قلبي يقول لى : لا يا صدْقَهُ فيما زعم

ورد : إذن تعالَ قيسُ واسمعْ فى أناة وكرمْ
لا تجعلنَّ الغضبَ الـجائرَ بيننا الحكَمْ
إسمع حديثى إنه ما خطَّ مثلَه القلم
وسِرُّه لا الأهلُ يد رون به ولا الخدَم
أنا الذى ظُلمتُ قيـس ما أنا الذى ظَلَمْ
أليّةً وما علىّ لك يا قيس قَسَم
كم مرَّتِ الليلةُ بى والليلتان لم أنم

منـذُ حوت دارىَ ليـــلى ما خـلوْت من ندَم

كانت إطافـتى بهـا كالـوثنىِّ بالصَّـنم

وربمـا جئتُ فِـرا شهَا نخـانتنى القـدم

كأنهـا لى محْـرَمٌ وليس بيننـا رَحِـم

شـعرُك يا قيسُ جنَى علىّ هـذا واجترَم

هـيَّبهـا فامتنعتْ كأنهـا صيدُ الحرَمْ

وهَبتُهـا للحبِّ والشـعر وقيس والألـم

قيس : ولكن تعالَ سَرِىَّ ثقيف أبِنْ لىَ ما لم تُبَيِّنَّ تعالَ

تقولُ لَقيتَ شعرى الشقاءَ وجرّ عليك بيانى الوبالا

لقـد قلتَ قولا فأوْجزتَه فبالله إلا شرحت المقـالا

ورد : إذن . أَصغِ قيس

قيس : قل الصدقَ وردُ

ورد : وهل كانَ لى الصدقُ إلا خلالا

فلولاكَ ما اخترتُ إلا ثَقيفًا ... ولم أُلقِ للعامريّات بالا
ذهبتُ بشعرك منذ الشبابِ ... أُغنّي القِصار وأروى الطِّوالا
أرى بين ألفاظِهِ ظِلَّ ليلى ... وألمحُ بين القوافى الخيالا
فلما رُدِدْتَ وقيلُ القصائـــد والعشقُ بين المحِبَّيْن حالا
خرجتُ الى حيِّها خاطبًا ... ولم أدَّخرْ دون مسعاىَ مالا
بنيتُ بها فتهيّبتُها ... وأىُّ امرئٍ هاب قبلى الحلالا
فشعرُك يا قيسُ أصلُ البلاء ... لقيتُ به وبليلى الضلالا
كساها جمالا فعلّقتُها ... فلما التقينا كساها جلالا
إذا جئتُها لأنالَ الحقوقَ ... نهتْنى قداستُها أن أنالا

أمسكْ أبا المهدى !

[يستحيل كلامه إلى همس، إذ تبدو ليلى على باب الخباء] :

أُنْظُرْ هذه ... ليلى علينا طلعتْ من الخبا

[ثم ينادى بصوت متهدج] :

ليلى، تعالىْ أسرعى قيسٌ أتى ... ليلى، هُناكِ مَنْ تحبّين هُنا

قيس : أمازحٌ ياوردُ قل لى أنت أم تَسخَرُ منى أم تُرَى تَهزا بنا؟

ورد : بل قلتُ جدًّا لم أقل مُهازلا

قيس : [هامًا بالذهاب إليها] : إذن ندعْها لا تُجشِّمْها الخُطا

ورد : [وليلى تقترب] :

إسمعْ أبا المهدىّ همسَ خطوها كأنه وَطْءُ الغزال فى الحصا

دعوتُ فاهتمّتْ ولولم أدْعُها لوَجَدتْ ريحكَ من أقصى مدى

قيسُ تثبّتْ واستعدّ ، هى ذى أتتْ ، فلا يذهبْ بلبك اللقا

الآن أمضى لسبيلى

قيس : بـل أقـمْ إلبثْ أعِنِّى ، إننى خُرتُ قُوَى

ورد : قيس أرى الموقف لا يجمعُنا أنتَ حبيبُ القلب ، والزوج أنا

يا لكما مـنى ويالى منـكما نحن الثلاثة ارتطمنا بالقضا

[ينصرف وتقبل ليلى على قيس] :

قيس : ليلاى . ليلى القلب

ليلى : قيس ، مالى دارتْ بى الأرضُ وساء حالى

قيس : فـداك ليـلى مهجتى ومالى من السَّقام ومن الهـزالِ

تعالِى أشكى لِىَ النوى تعـالى ألقِ ذراعيْـك على خيـالِ

[تصافحه بشوق].

ليـلى : أحق حبيبٌ القلب أنت بجانبى أحلمٌ سرى أم نحن منتبهان

أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ بأرض ثقيفٍ نحن مغتربان

قيس : حنانيك ليـلى ، ما الحِلّ وخِلّه من الأرض إلا حيث يجتمعان

فكلُّ بلاد قرَّبتْ منكِ منزلى وكل مكانٍ أنتِ فيه مكانى

ليـلى : فمالى أرى خدَّيْك بالدمعَ بُلّلا أمِنْ فَـرَح عيناكَ تبتدران

قيس : فداؤك ليلى الروحُ من شرّ حادث رماك بهذا السُّقْم والذّوَبان

ليـلى : ترانى إذن مهزولةً قيس؟ حبّذا هُزالى ومَن كان الهزالَ كسانى

قيس : هو الفكرُ ليلى ، فيمن الفكر؟

ليـلى . فى الذى تجـنّى

قيس : كفانى ما لقيتُ كفانى

ليـلى : أأدركتَ أن السهم يا قيسُ واحدٌ وأنّا كلَيْنا للهوى هـدفان

كلانا قيس مَذبوحٌ قتيلُ الأبِ والأم
طعينان بسكّينٍ من العادة والوهم
لقد زُوِّجتُ ممّن لم يكن ذوْقى ولا طعْمى
ومن يكبُرُ عن سنِّى ومن يصغرُ عن علمى
غريبٌ لا من الحىِّ ولا من ولَد العمّ
ولا ثروتُهُ تُربِى على مال أبى الجَمّ
فنحن اليومَ فى بيت على ضِدَّيْن مُنضَمّ
هو السجنُ وقد لا ينطوى السجنُ على ظلم
هو القبرُ حوى ميّتيْن جارين على الرَّغم
شتيتين وإن لم يَبعُد العَظْمُ من العَظم
فإن القرب بالرُّوح وليس القربُ بالجسم

قيس : تعالىْ نَعِشْ يا ليلَ فى ظل قفْرَةٍ من البيد لم تُنْقَلْ بها قدمان
تعالىْ إلى وادٍ خَلِىٍّ وجَدْولٍ ورنّةِ عُصفورٍ وأيكَة بان

تعالى إلى ذكرى الصِّبا وجنونه　　وأحلام عيش من دَدٍ وأمان
فكم قُبلة ياليل فى مَيْعة الصِّبا　　وقبلَ الهوى ليست بذات معانى
أخذنا وأعطينا إذ البَهْم ترتعى　　وإذ نحن خلف البَهْم مستتران
ولم نكُ ندرى يومَ ذلك ما الهوى　　ولا ما يعودُ القلبَ من خفقان
مُنَى النفس ليلى قرِّبى فاكِ من فمى　　كما لفَّ منقاريهما غَرِدان
نَذُقْ قُبلةً لا يعرف البؤسَ بعدها　　ولا السُّقمَ رُوحانا ولا الجسدان
فكلُّ نعيم فى الحياة وغبطة　　على شفتينا حين تلتقيان
ويخفُقُ صدرانا خفوقاً كأنما　　مع القلب قلب فى الجوانح ثانى

[تنفر ليلى] :

ليلى : وكيف !

قيس : ولِمْ لا ؟

ليلى : لستَ يا قيسُ فاعلا　　ولا لى بما تدعو إليه يدان

قيس : أتعصينني ياليلَ ؟

ليلى : لم أعصِ آمرِى ولكنّ صوتا فى الضمير نهانى

* * *

وورد ياقيس؟ وردٌ ما حَفَلتَ به لقد ذَهَلتَ فلم تجعل له شانا

قيس [غاضبا] :

تَعنين زوجَك يا ليلى ؟

ليلى [منكسة رأسها] :

نعم

قيس : ومتى أحببْت وردا ؟ تُرَى أحببته الآنا

ليلى : فيمَ انفجارُك ؟

قيس : من كيدٍ بُخِئتُ به

ليلى : إنى أراك أبا المهدى غيرانا

وردٌ هو الزوجُ، فاعلمْ قيسُ أن له حقا علىّ أؤدّيه وسلطانا

قيس : إذن تحاببتما ؟

ليلى : بل أنت تظلمنى فما أُحبُّ سواك القلبُ إنسانا

ولستُ بارحــةً من داره أبدا ... حتى يُسرّحَني فضلا وإحسانا
نحن الحرائر إن مال الزمانُ بنا ... لم نشــكُ إلا إلى الرحمن بلوانا

قيس : بل تذهبين معى

ليـلى : لا ، لا أخونُ له ... عهداً ، فما حاد عن عهدى ولا خانا
فتًى كنبْعِ الصفا لم يختلفْ خلقاً ... ولا تلوّنَ كالفتيان ألوانا

قيس [متهكما] :
أراكِ فى حبِّ وردٍ جدَّ صادقةٍ ... وكان حبُّكِ لى زورا وبهتانا

ليـلى : قيس

قيس [صارخا] :
اتركينى بلادُ الله واسـعةٌ ... غـدا أبدّلُ أحبـابا وأوطانا

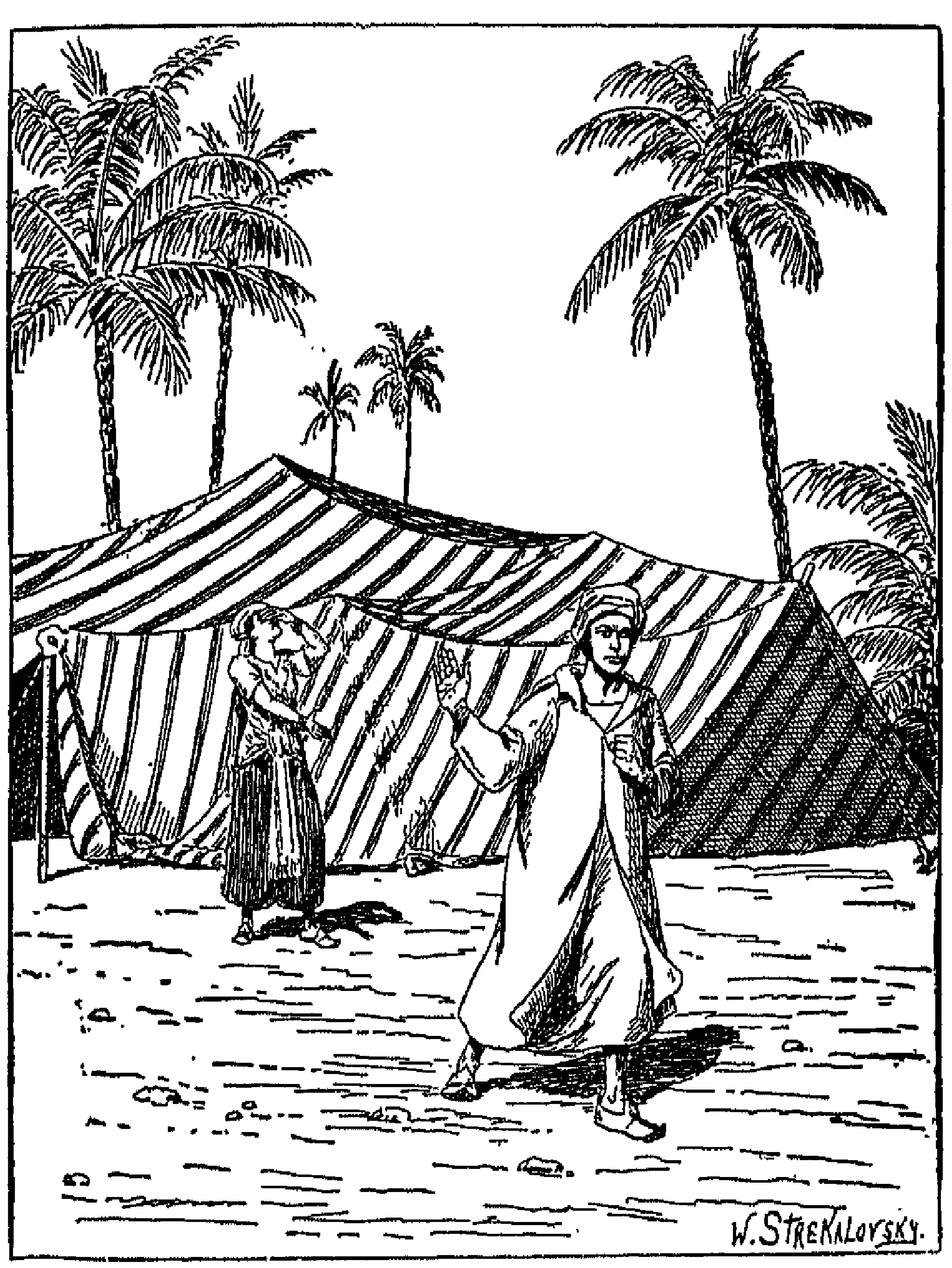
[يحاول أن يتركها فتمسك به ليلى] :

ليـلى : العقلَ يا قيس !

قيس : لا خَلِّى الرداءَ دعى

[ثم يفلت منها ويندفع إلى سبيله
تاركا إياها باكية فى هيئة استعطاف]

ليـلى : وارحمتـاه لقيسٍ عاد ما كانا !



... ... أتركيني بلاد الله واسعة غداً أبدّل أحباباً وأوطاناً

واهًا لقيسٍ وآهِ ما صنعا؟ أكبرَ قيسٌ بلواى والوجعا

[تدخل عفراء] :

عفـــراء عنـــدى

عفراء: لبّيك سيدتى الصبر واستدفعى به الجزعا

ليلى : لقد سمعتِ الحديث كيف إذن صبرى على ما جرى وما وقعا

قلتُ لقيسٍ مقالَ مشفقةٍ لم يُلق بالًا له ولا سمعا

وقيسُ ذو جِنّة وإن زعموا جنونَه مدّعًى ومصطنعا

تحيّر النـاسُ فى جنون فتى لا عقلَ إلا بشعره ولعا

واللهِ لو جاء فى مُحاسنةٍ يسألُ وردَ الطلاقَ ما منعا

فوردُ يا عَفْرِ لا كفاءَ له مروءةً فى الرجال أو ورعا

آهِ من السّقم

عفراء : ألفَ عافيـــة

ليـلى : آهِ من الحادثاتِ

عفراء : ألفَ لعًا

ليلى : أنا عُذريّةُ الهوى أحملُ العبْ ء وإن ناءَ بالصبابة جهدى
المحبّات ما بكيْن كدمعى في الليالى ولا أَرِقن كسُهدى
ويح قيسٍ وويحَ لى أىّ ثأر للمقادير عند قيسٍ وعندى
أتعب الحىَّ داءُ قيس ودائى وتعايى الدواءُ كُهّانَ نجد
لا الحواميمُ تصرفُ الجنّ عنا حين تُتلى ولا رُقى السحر تُجدى
أبقيسٍ وبى هوى عبقرىٌّ يَسلُبُ العقلَ من ذويه ويُردى
علّةُ البيد من قديم وداءٌ ضاعَ فيه الرُّقى وحار المُفدّى
ما سلاحاه حين يقتلُ إلا من عفافٍ ومن وفاءٍ بعهد
لم تُعَذَّب بالحب عذراءُ قبلى كعذابى ولن تُعَذَّبَ بعدى

عفراء : هى عذراء؟ ربِّىَ اشهدْ

ليلى : أجل عذراءُ حتى يضمّنى ركنُ لحدى

عفراء : والذى أنتِ تحته ؟

ليلى : تحت بعل غيرِ ذى جفوة ولا مستبدّ

راعني اللومُ من جميع النواحي فتـواريتُ في مُروءة ورد

[يقبل ورد وقد سمع آخر ما كانت تقول] :

ورد : ربِّ ماذا سمِعتُ؟ ليلى شكورٌ لكِ نفسي الفِداء يا بنتَ مهدي

ليلى : ورد

ورد : ليـلى

ليلى : رُحمـاكَ وردُ وعفـوا

كنتُ أخفي الهـوى فأصبحتُ أبدي

ورد : ما بليلى ؟ ماذا أثارك ليـلى ؟ هدِّئي روعَك المُفَزَّعَ هدِّي

ليلى : الداءُ يا ورد فيَّ مجتهـد ملتهـمٌ هيكلي وما شـبعا

أصبحتُ لا أشتهي الطعامَ ولا يَحمَدُ جنبي إليَّ مضطجعا

قلبي من اليأس حين حلَّ به أُحِسُّ يا وردُ أنه انصدعا

لم يحمِلِ اليأسَ ساعةً ولقـد كان بما حمَّلوه مضطلعا

المتمـني بالعيش متنفـعٌ ولن ترى يائسًـا به انتفعا

القـدرُ اليومَ والقضـاءُ على حربك قيسُ وحربيَ اجتمعا

« ستـار »

الفصل الخامس

« مقابر على سفح جبل توباذ فى طريق عام على مقربة من »
« حى بنى عامر يبدو من بينها قبر جديد ما زال أشخاص من »
« الحى يهيلون عليه التراب و يصعون الأحجار . ومن حوله كثير »
« من رجال الحى وفتيانه وصغاره يرى بينهم المهدى و ورد »
« وكلهم باك أو حزين... يبدأ المشيعون فى الانصراف وهم يعزون »
« المهدى و يصافحونه واحدا بعد واحد و يمرّون على ورد مرورا »

معز : إنا لله أبا ليلى

آخر : صبرٌ أبا ليلى جميل

[فى أثناء انصرافهم يمر رجل فى الطريق
فيسأل صبيا من صبيان الحى فى ناحية]

المار : قبرُ مَنْ يا صبي ؟

الصبى : قبرها يا أبى

المار : امرأة ؟

الصبى : نعم

المار : ومَن تكونُ ؟

الصبى [مشيرا إلى المهدى] :

بنت ذا الرجل

ليلى ابنةُ المهدى ألستَ من نجدِ؟

صبي آخر : أجلْ قد دُفنت ليلى وما جفّ لها لَحَدُ

وذا الشيخ أبو ليلى وذا صاحبُها وردُ

هنا الوالدُ والزوج

المار : وقيس ؟

الصبي : لم يجئْ بعد

[يقترب الرجل من المهدى فيعزيه]

المار : مهدىٌّ أجملْ جزعا

معمر : يا أبا ليلى جمالَكْ

آخر : عَزَاءً أبا ليلى

آخر : عزاء أبا ليلى

آخر : صبرٌ أبا ليلى جميل

صديق من أصدقاء ورد [هامسا إليه] :

لقد أحسنتَ يا وردُ وما للناس إحسان

يُعزُّون أبا ليلى وما عزَّاك إنسان

بل انظُرْ تَرَهم أقسى عليك اليوم ما كانوا
على الأوجُه بغضاء وفى الأعْين عدوان

ورد : مهلًا أخى وانظُرْ إلى الناس بعين مُنصِف
هم يأخذون ما بدا ويتركون ما خفى
ظنُّ الجماعات فىَّ سوءٌ ورأيُهم فىَّ ما أصابا
يرَوْن أنى عدُوُّ قيسٍ أخذتُ ليلى منه اغتصابا
وزدتُه نفسيْهما شقاءً وزدتُ قلبيْهِما عذابا
ليسأل الناس قبر ليلى فإن فى قبرها الجوابا

[يلتفت إلى المهدى بعد أن يعزيه آخر معز] :

تجمّلْ أبا ليلى

المهدى [مصافحا إياه] :

تجمَّلت طاقتى ولستُ بخوّارٍ قليل التجلدِ
حَملتُ فُضولَ الناس ياوردُ حِقْبةً إذا قمت من باغٍ عثرتُ بمُعتدى
يعيشون فى عرضى فمن كل مِعوَلٍ ومن كل مِقراضٍ ومن كل مِبرَدِ

وهذا يحيّيني ويقطعُ فروتي   وهذا يُفدّيني ويهدمُ سؤددي
وياورد لو لم تُرْخ سترًا على ابنتي   لظلّتْ بعرضٍ في البوادي مبدّد
حَفِظتَ ابنتي حفظ الشقيق ومُرِّضتْ
ببيتك تمريض الصغير الممهد
وصيّرتَ ليلى في حماكَ وخدرها   كعذراء ديرٍ أو كدُمْية معبد
لقد صنتَها ياوردُ فاذهب فما أنا   بناسٍ لك المعروف أو جاحد اليد
وليلى فتاةٌ حُرّةٌ بنتُ حرّة   أحبّتْ غلامًا سيّدا وابن سيّد
واعلمُ أني كنتُ حربَ هواهما   وكنتُ مع الواشي وعَوْنَ المفنّد

[يلتفت إلى القبر باكيا] :

ورد : يظل الله ياليــلى   وفي بحبوحة الخُلْدِ
وهذا نجدُ يا ليلى   فنامي في ثرى نجدِ

[يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر
الغريض المغني والشاعر ابن سعيد وأمية وسعد]

الغريض : دنا الحيُّ يابن سَعيد وثمّ

ابن سعيد : وما ثمّ ؟

الغريض : أنظر يُجبْك النظرْ

ابن سعيد : قبورٌ ؟

الغريض : أجل عارضتْنا القبور وعما قليل نُجيزُ الحُفَرْ

ابن سعيد : وهل نحن إلا على حُفْرَة هى الأرضُ أو هى قبر البشرْ
محجّبةٌ بغرور الحياة يراها إذا غرغر المحتضَر
غريضُ ، بصُرت بقبر جديد

الغريض : وماذا سوى الموت فى ذا العفَرْ؟

ابن سعيد : أخُ كان يملأ أمس الهواء ويحيا الحياةَ ويجرى العمُرْ
نزيلٌ لعمرى غريبُ الغطاءِ غريبُ الوطاءِ غريبُ الحُجَرْ
لدى منزلٍ كبيوتِ الكِرَاء مراراً خلا ومراراً عمر
يُزارُ كثيراً فدون الكثير فغِبًّا فيُنسى كأن لم يُزُرْ

وليس بنافعه الواصلون ... وليس بضائره من هجر
فيا ميْتَ أمسِ عدتكَ الرياحُ ... وحيّاكَ فى الفَترات المطر
وأمسِ كعادٍ وإن كان منك ... مُطيفَ الخيال قريب الصُّوَر
لقد نفض الليلُ منك اليدين ... وأدرك فيك النهارُ الوَطَر
وأمسيتَ تحت لواءِ التراب ... قهرتَ القضاء ودِنت القدر
تلفَّتْ وراءكَ أين الغرورُ ... وأين السرورُ وأين الأشَر
وأين مَعالِمُ عُرْسِ الحياة ... وأين سنا ليله المزدَهِر
وأين شبابٌ كحُلْمِ العروس ... ضَحُوكُ العَشيَّاتِ طَلْقُ البُكَر
وأين العداواتُ من سافرٍ ... مُبِينٍ ومن كاشحٍ مُسْتَتِر
وأين المودَّاتُ من صُحْبةٍ ... كنحلٍ يَحُمْنَ وأنت الزَّهَر
قليلون عند امتناعِ القِطَافِ ... كثيرون عند رجاء الثمر
وكم مَن سَقَيْتَ بشَهْدِ الوداد ... فلم يَجْزِ إلا بصابِ الإبَر
فذُقْ سِنَةً لا كَكُلِّ السِّنَات ... ونَمْ ليلةً ما لها من سَحَر

وقُلْ للصديق طوَيْنَا الحديثَ وقُلْ للعدوّ دفنّا الخبر
وهيِّئْ مكانيهما فى التراب فإن ركابَهما مُنْتَظَر

سعد: أميةُ، ماذا ترى فى الغريض؟

أمية: وماذا أرى فى أمير الطربْ؟

سعد: لقد علم الناسُ أن الغريضَ مُغَنِّى الحِجازِ وشادى العربْ
ولكن ... ...

أمية: وماذا وراءَ «ولكن؟» فمن شأنها أن تُثيرَ الرِّيَب

سعد: أميَّ اخفِض الصوتَ لا يسمَعنَّ فيغضبَ فهو قريبُ الغضب
وأُذْنُ المغنى تُحسُّ النسيمَ وتَسمعُ فى الكأس جرسَ الحَبَب
أميّةُ إنى أخافُ الغَريضَ وإن التَّطَيُّرَ بى قد ذهب

أمية: وأين ترى الشؤمَ حولَ الغريض
وكيف؟

سعد: رُويدك تَدرِ السبب

أليس الغريضُ يَهيجُ البكاءَ　　فلو رام دمعَ العروس انسكب
ترعرع فى بيئةِ النائحاتِ　　وعلّمنه النَّدبَ حتى نَدَبْ
ينوحُ بيثربَ آلَ الرسولِ　　ويُذكِى مآتمَ أهلِ الحَسَبْ
أمينة : وأين يدُ الشؤم مما ذكرتَ　　وأىَّ بلاءٍ علينا جَلَبْ
وما هو إلا مُغنِّى الحياةْ　　بناحيتيها الأسى والطرب
سعد : ولكننا قاصدو عامرٍ　　لنقضىَ حقًّا لقيس وجب
ونسألَ عن عاشقٍ فى الديارِ　　طويلِ البلاءِ ثقيل الوَصَبْ
ومن زار بالنائحات المريضَ　　وأهلَ المريض أضاع الأدب

[يتهيأ الغريض للغناء]

هو ذا هاج شجوه　　هو ذا يُرسلُ النَّغَمْ
هاتفٌ من نُواحه　　رن فى القاعِ والأَكَمْ
هو فى كل خاطرٍ　　وفؤادٍ صدَى الألم

[أنشودة الغريض] :

وادىَ الموت سلامُ　　وسقَى القاعَ الغمامُ

السماءُ القُدْسُ محرا بُكَ والأرضُ الحرامُ
أنتَ فى الصمتِ مُبِينٌ ومنَ الصمتِ كلامُ
لم يمتْ أهلُكَ لكن غشىَ الليلُ فناموا
غُيَّبٌ لم تدر ما صاروا ولا أينَ أقاموا

[يخرجون إلى ناحية الحى من حيث يسمع آخر الأنشودة
ثم يدخل من الجانب الآخر على أثر اختفائهم قيس وزياد]

قيس : جبلَ التوْباذ حيَّاك الحيا وسقى اللهُ صبانا ورعى
فيكَ ناغيْنا الهوى فى مهده ورضعْناه فكنتَ المُرضعا
وحَدَوْنا الشمسَ فى مَغربها وبكَرْنا فسبقنا المَطلعا
وعلى سفحكَ عِشنا زمنا ورعينا غنمَ الأهل معا
هذه الرَّبوةُ كانت ملْعباً لشبابينا وكانت مرْتعا
كم بنيْنا من حصاها أربُعاً وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخططْنا فى نقا الرمل فلم تحفظِ الريحُ ولا الرملُ وعى
لم تزلْ ليلى بعينى طفلةً لم تزد عن أمس إلا إصبعا

ما لأحجارِكَ صُمًّا كلما هاجَ بي الشوقُ أبتْ أنْ تسمعا
كلما جئتُكَ راجعتُ الصِّبا فأبتْ أيامُه أن ترجِعا
قد يهونُ العمْرُ إلا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلا مَوْضعا

[يظهر بشر قادما إلى المقبرة من ناحية الحى]

بشر : عزاء قيس؟

قيس : مَنْ ؟ بشْرُ؟

بشر : أجـــل

قيس : فيمن تُعزِّينى؟
أنا الميِّتُ يا بِشْرُ وإن أُخِّرَ تكفينى

[يضطرب بشر وقد أدرك جهل قيس
وحرج الموقف ثم يميل هامسا إلى زياد]

بشر : يجهلُ قيسٌ موتَها ولم أخَلْ أن يجهلَهْ
ويْحَ له وويْحَ لى! ماذا عسى أقولُ لَهْ
إنِ الحبيبَ نعيهُ إلى المحب معضلهْ
إنى أخاف إن أنا خبَّرتُه أن أقتُلَهْ

قيس : بشر

بشر : لَبّيك قيسُ

قيس : من أين يابشـــــر ؟

بشر : مِن الحى

قيس : ما حوادثُ عامرْ؟

كيف أمى يا بشر ؟

بشر : ترّحها الشـــوق

قيس : وأهــلى ؟

بشر : حنينهم متكاثر

قيس : ولِداتى من فتيةٍ وعذارى؟

بشر : كلهم شيّقٌ لعهدك ذاكر

قيس : كيف بِنْتٌ لنا بمدرجةِ الريـــــح ونادِ على النجوم وسامِر؟

والنخيلاتُ كيف خلفتَها بشـــــر

كما هن باسقاتٌ نواضر

قيس : ومهارى التى تركت صغارا؟

بشر : كبرت قيسُ فهى جُردٌ ضوامر

قيس : عزّت البيد، تُنبتُ السابق الفذّ وتأتى بفارس وبشاعر

[يضطرب بشر]

ويح بشرٍ ماذا به؟

بشر : قيس !

قيس : بشر!

أنت فى نفسكَ الخفيّة ثائر

تُشبهُ الحزنَ والبكى نبَراتٌ لك كانت كضاحكات المزاهر

بشر [إلى نفسه ثم الى قيس] :

ربِّ ماذا أجيب؟ لا شيءَ يا قيس

قيس : بل الحزنُ فى مُحيّاك ظاهر

ولقد راعنى لك اليوم جِدٌّ من خليع العِذار بالأمسِ سادِر

[تغرورق عينا بشر بالدموع] :

ماجرى؟ ما الذى أثارك يابن العم؟ ما هذه الدموع البوادر؟

بشر : قيس ، لاشيء

قيس : بل كتمتَ جليلًا هذه وَجْمةُ النَّعِيِّ المحاذر

بشر : قيس ...

قيس : لا تَجِمْ ولا تُخْفِ شيئا أنا يا بشرُ بالفجيعةِ شاعر

خُلِجتْ قبل نلتقِ عينَى اليســـرى ورِيعَ الفؤادُ روْعةَ طائر

بشر : أعفنى ! أعفنى ! بربك ما أنــــت على ما أقوله لك قادر !

قيس : أماتت ؟

بشر : أجلْ قضتْ أمس ...

قيس [وهو يغمى عليه] :

واليـــــلاه !

بشر : لله — ما أشـدَّ المقـادر !

[يمضى بشر فى سبيله]

زياد [مقتربا من قيس] :

هو مغمًى عليه ربِّ أيصحو؟ هل لهذا العذاب يا ربّ آخر؟

[يصحو قيس] :

زياد : تباركتَ يا ربِّ قيس أفاق صحتْ عينُه وصحا المسمعُ
رَجعتَ لنا قيس

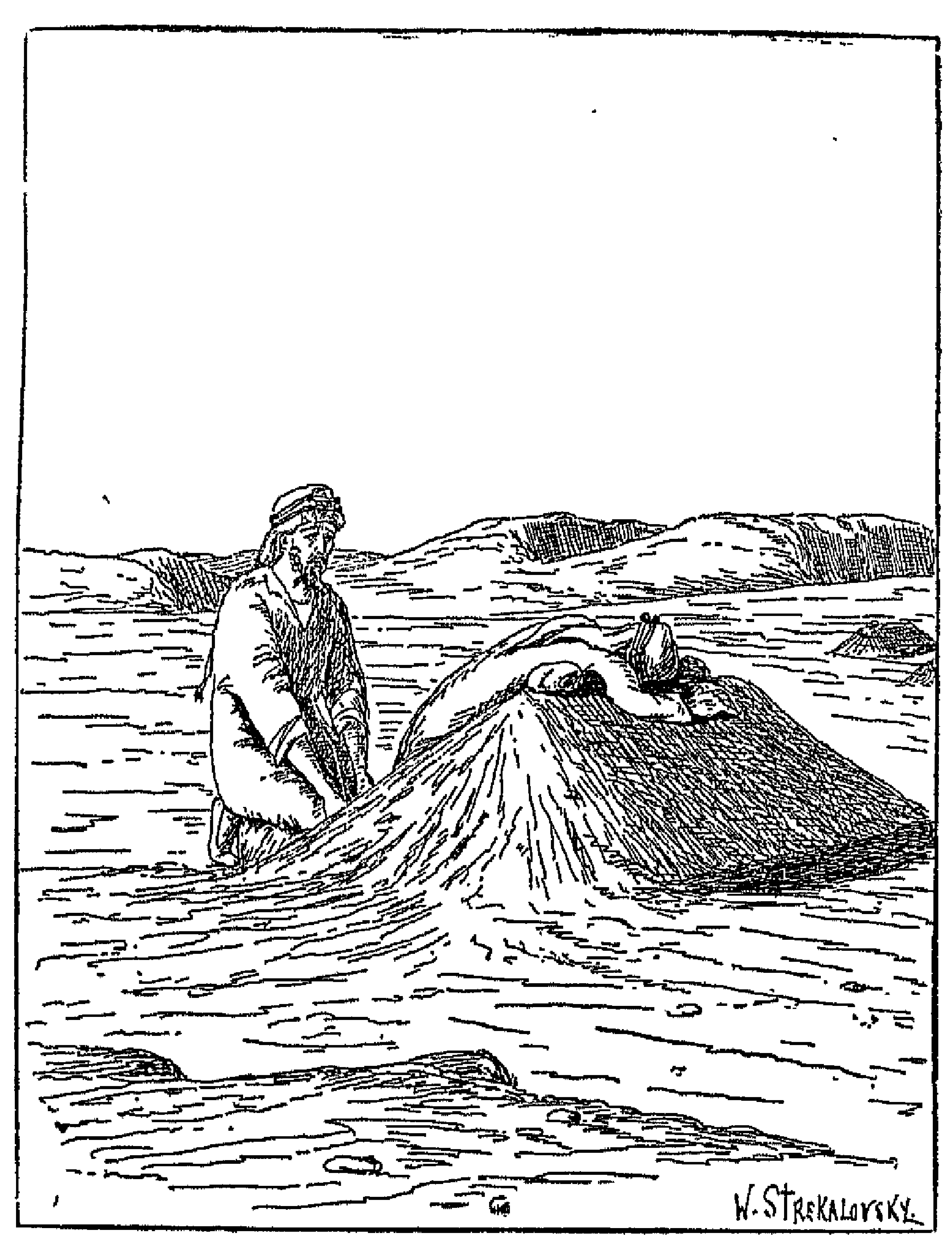
قيس : هيهات هيها تَ! من كان في النَّزْع لا يرجع
لقد بقِيتْ خفقةٌ في السراج سيلفِظُها ثم لا يسْطع
زياد غداً يلتقِ الموجَعون وموعدنا ذلك البلقع

[يشير إلى المقابر] :

عرَفتُ القبور بعَرْف الرياح ودلّ على نفسه الموْضعُ
كثكلى تَلمّسُ قبرَ ابنها إلى القبر من نفسها تُدْفَع
هداها خيالُ ابنها فاهتدت وليلى الخيالُ الذى أتبَع
لنا الله يا قلب ! ليلاكَ لا تجيبُ وليلاىَ لا تسمع !
فُجِعنا بليلى ولم نك نحسَبُ يا قلب أنا بها نُفجع

[يقترب إلى القبر باكيا فيكب بوجهه على حجر من أحجاره] :

أعينيَّ هذا مكانُ البكاء وهذا مسيلُكِ يا أدمعى
هنا جسمُ ليلى هنا رسْمُها هنا رمَقِى فى الثرى المودَع



أعينى هــذا مكان البكاء وهــذا مسيــلك يا أدمعى

هنا فمُ ليلى الزَّكىُّ الضحو ... كُ يكاد وراء البلى يلمعُ
هنا سِحرُ جَفن عفاه التراب ... وكان الرقَّ فيه لا تنفع
هنا من شبابى كتابٌ طواه ... وليس بناشره البَلْقَع
هنا الحادثاتُ ، هنا الأمل الحلـوُ يا ليلَ ، والألمُ المُمتع
طريدَ المقادير هل مَنْ يُجيرُ ... كَ منها سوى الموت أو يمنع ؟
تَزِلُّ الحياةُ لسلطانها ... وللموت سلطانها يخضعُ
طَريدَ الحياةِ ألا تستقِر ... ألا تستريحُ ، ألا تهجَع ؟
بَلى قد بلغتَ إلى مفزَع ... وهذا التراب هو المفزع

[يظهر الأموى شيطانه من بعيد و يناديه] :

الأموى : قيس

قيس : مَن الهاتفُ من ... نادى الشريدَ المُطَّرحْ
الأموى : أنا الذى أوحى إليـك حُبَّ ليلى واقترح
قيس : اذهبْ وإن لم أدرِ رو ... حٌ أنت أم أنت شبَح
اذهبْ فلستَ صالحا ... وأىُّ شيْطان صَلُحْ

كنتَ قرين السوء لى وكنتَ شر من نصَح
لولاك ما بُحتُ بما خدّش ليلى وجَرح
كأنه فى عِرضها زيت على الثوب سرح

الأموى : أفق قيس

قيس : سرْ خلّنى يا خيال ومَنْ بالخيال لمن لم ينَمْ
الأموى : حنانيْكَ قيسُ أقِلَّ العتابَ ولا تَسكبنَّ دموعَ الندمْ
تفرّدْتَ بالألم العبقرىّ وأنبغُ ما فى الحياة الألم
مُريبكَ ياقيسُ فوق التراب وأنت مع النّجم فوق التهم
أخذتَ سبيلَك نحو الخلود وليس الخلود سبيل الأمم
قُم اهتف بليلى وشَبّبْ بها وخَلِّ التقاليدَ وانسَ الحُرَم
وطِرْ فى الهواء طليقَ الجَناح وسرْ فى الأديم طليقَ القدم
فلو أنصفَ الناسُ خلّوْكما كتَرك الوفود حَمامَ الحَرَمْ
قُم ابسُطْ جناحك فوق القفار وطِرْ فى الوهاد وقعْ فى الأكم

وانْزِع من الوتر العبقرى ... سَمَاءَ القصور وأرضَ الجحيم
وألِّف على الحب شتّى القلوب ... وأرسلْ بسرِّ الجمال النغم
تَغَنَّ بليلى وبُحْ بالغرام ... وبُثَّ الصبابةَ واشكُ السَّقم
فلا خيرَ فى الحب حتى يَذيعَ ... ولا خيرَ فى الزهر حتى يَنِمْ

قيس : أقــوم ؟ ... ... هات قدما
أقــول ؟ ... ... أعطنى فما
أما ترانى هيكلا محطما مهـدّما !

[يختفى الشيطان و يستمر قيس] :

يارَبّ قيس هل نعيتُ وهل جرتْ ... كأسٌ تدورُ على النفوس مَشاعُ ؟
أَوْ لا فما بالى أنــوءُ بهيـكل ... للموت فيـه وللحيـاة صِراع
اليومَ آذنَنا القضاءُ بحكمـه ... مالى ولا لك ياحيـاة دفاع
راجعت فى الموت الحياةَ وعادنى ... فى النزع ياليـلى إليـك نزاع
كيف الوَداعُ من الحياة ولم يُتَحْ ... لىَ منك ياليـلى الغداةَ ودَاع
هيهاتَ لم تعـدِمْ شـذاكِ قرارة ... حولى ولم يعدِمْ سناكِ يَفـاع

وعلى سماء البيد منك بشاشةٌ وعلى رمال البيد منك شُعاعْ
وكأنّ كل ضبابة دون الضحى قسماتُ وجهك دونهنّ قناع

[يمرّ به ظبي سارح فيتأمله قليلا و يناجيه]

ياظبي بَكَ من افتداكَ بماله إذ أنت عان تُشترَى وتُباع
وأباح طفلك ماءه وطعامَه إذ هنّ عَطْشَى بالفَلاة جياع
ياقاعُ كن نعشي وكن كفني وكن قبرى وقم فى مأتمى ياقاع
واجمَعْ لتشييعى الظِّباءَ، ومَنْ رأى ميْتًا بأسراب الظباء يُشاع
أتُرى أموتُ كما حييت مُشَرَّدًا لا الأهلُ من حولى ولا الأتباعُ
وأبيتُ وحدى لا الوحوشُ أوانسٌ
حولى هناك ولا الظباءُ رِتاع

[تتخاذل سيقان قيس فيتلقاه زياد ويظهر
ابن ذريح على مقربة من القبر خاشعا باكيا]

زياد : قيس ، لا بأس عليك أنا ذا بين يديك

قيس :

نفسُ اطمئنى الآن لستُ وحدى قد حضَر الذى يَخُطُّ لحدى

ويُرشِدُ الحيَّ إلى بَعدى زيادُ أنتَ المُشفقُ المُفدّى

لم أنفردْ إلا رُؤيتَ عندى

[يتبين شبح ابن ذريح] :

زيادُ ما ذاك من ذا يبكى وراءَ الضريحِ

إنى أغارُ على القبـر من غريبِ الجُروحِ

زياد : لا تخشَ ياقيسُ منه فإنه ابنُ ذريح

ابن ذريح : ياليلَ ، قبرُك ربوةُ الخلد نفَحَ النعيمُ بها ثرى نجدِ

فى كل ناحيـة أرى مَلَكا يتنفسون تنفُّسَ الورد

لبِسوا الجُمانَ الرَّطْب أجنحةً وتناثروا كتناثُرِ العِقد

وتقابلوا فعلى تحيّتهم مِسْكُ السلام وعنبرُ الرّدّ

وكأنّ نجواهم وسُبحتَهم صَوْبُ الغمامة أو صَدَى الرعد

نفحات طِيب هاهنا وهنا ما للرياض بهنّ من عهد

ياقيسُ صبرا هاهنا مَلَكٌ ذبحُ الصبابة مَشهَدُ الوجد

أصغِ انتبهْ واطرحْ بعينك فى بَهَجِ السماءِ وحُسْنِ ماتبدى



فى كل ناحية أرى ملكا   يتنفسون تنفس الورد

قيس : أين السماءُ وأين مُحتضَرٌ طلعتْ عليه الأرضُ باللّحْد
السهدُ عذّبني وذي سِنةٌ أجِدُ الشفاءَ بها من السُّهد
ولقد أقولُ لمن يُبشّرُني بالخُلد ما أنا داخلٌ وحدي
لو أن ليلى فى النعيم معى أو فى الجحيم تساويا عندى
ليلى النعيمُ وقد ظفرت بها فاليوم نرقُدُ فى ثرى نجد
إنى أحبُّ و إن شقيتُ به وطنى وأوثِرهُ على الخُلد

[يسمع صوتا ضئيلا كأنما هو خارج من القبر] :

الصوت : قيس

قيس : مَنِ الصوتُ ويحى أبى سِحرُ

الصوت : قيس

قيس : زيادُ اسمعْ وأصغِ يا بِشرُ

الصوت : قيس

قيس : سمعت اسمى يلفظُه القبرُ

الصوت : قيس

قيس : تناديني من قبرها باسمى

لبيّك يا ليـــلى بالروح والجسم

[يدخل فى دور الاحتضار الأخير] :

هل أسى الموتُ جراحينا وهل قرب الدارَ وهل لمّ الشتاتْ ؟

أصوات : قيس ، ليلى

قيـس : رنّةٌ فى أذُنى رددتْ قيسَ وليلى الفَلواتْ

نحن فى الدنيـا وإن لم ترنا لم تمُتْ ليلى ولا المجنونُ مات

« ســـتار الختام »

نظرات تحليليـــــة

تمهيـــــد

اختلف الرواة فى مجنـون بنى عامر ، فى اسمــه وفى شخصه ، وفى حياته وموته ، وفى قصة هواه أهى موضوعة . لهـا بها قوم وتداولها آخرون ، أم هى مأساة حقيقية؟ ومهما يكن فقد أصبحت قصة المجنون فصلا خالدًا فى تاريخ الأدب العربى فيه روح شعرية ناضرة ، تحدّث الأجيال عن أسمى وأعلى مثل للغرام البدوى القوى العفيف ، وهذا ما يعنينا حيال هذه الرواية الجديدة .

هيكل الرواية

اختار المؤلف لمجنون بنى عامر اسمًا واحدًا من بين الأسماء الكثيرة التى اختلف فيها الرواة «هو قيس بن الملوّح» ثم كنى عنه فى بضع مواضع بأبى المهدى ، واختار لحياة قيس من بين رواياتها المختلفة ، اسلسها وأجراها مع المنطق . إن قيسا وليلى نشآ فى بيتين

من أشرف بيـوت بنى عامر ، فتعارفا طفلين ، فتوادّا فاستحالت مودّتهما غراماً مع الأيام ، ثم شبب بها قيس فى شعره ، فحيل بينها وبينه نزولا على ما سوف ترى من سنة البادية ، فزفت إلى غيره ، فاتقد هواه واتقد حتى أشرف بعقله وجسمه على حال هى الجنون أو تكاد .

فأمّا شرف بيتهما فستراه حيث يتحدّثون عن قيس فيقولون فى غير موضع واحد إنه « سيد من عامر وابن سادات » وحيث يتحدّثون عن ليلى فيقولون عنها « عقيـلة الحمى » وينادون أباها « يا سيد الحمى » .

وأما مودّتهما طفلين فإليك عليها شاهدان من عدّة شـواهد تراهما فى كلام المجنون :

«فكم قبلة يا ليل فى ميعة الصبا وقبل الهوى ليست بذات معانى»
«أخذنا وأعطينا إذ البهم ترتعى وإذ نحن خلف البهم مستتران»

*
* *

«هـذه الربوة كانت ملعبـا لشـبابينا وكانت مرتعـا»

« كم بنينا من حصاها أربعا — وانثنينا فمحونا الأربعا »
« وخططنا فى نقا الرمل فلم — تحفظ الريح ولا الرمل وعى »
« لم تزل ليلى بعينى طفلة — لم تزد عن أمس إلا إصبعا »

وأمّا هواهما ، وكيف حيل بينهما ، فأنظرنا قليلا نقص عليك نبأه فى شىء من التعميم والإطناب .

لمحة سياسية

كان الحسين بن على كعبة القلوب والأبصار فى جزيرة العرب ، بعد أن قتل أبوه على ، ومات أخوه الحسن ، وانتهت خلافة الإسلام إلى معاوية بن أبي سفيان .

أصبح معاوية أمير المؤمنين ، وانداح السلطان عن بوادى العرب إلى حواضر الشام ، واستقر الحكم الجديد فى دمشق تاركا مكة وما يليها تحت ولاية مروان بن الحكم . فى هذا العصر عاش المجنون فى بادية نجد أو قيل إنه عاش .

ما كان فى الحجاز وما يليه يومئذ مسلم يستطيع أن يبتسم للزمن الجديد وللدولة الجديدة ابتسامة من أعماق نفسه ، وهو يرى الدين

الذى هشت له عاطفته وقلبه، وامتلأ منه يقينه وإيمانه، تعرّض له الدنيا التى أقبلت على دمشق محمولة على أسنة بنى أمية وأحلامهم فتنقله من حيث كان يراه هـذا العربى فى مكة ميزان العدل وآية الزهد والورع، إلى حيث قدر له هذا العربى أن يكون فى دمشق ملكا دنيويا .

وكذلك ظل الحسين قائما فى نفوس الناس هنالك صورة مقدّسة لبـداوة الإسلام ، تستمدّ أنضر ألوانها من صلته القريبة بجـدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبنوّته لرجل كان أشدّ الناس زهدا واستصغارا لدنيـاه ، وكذلك ظهرت بلاد العـرب وقلبها يخفق باسم الحسين ، ولسانها المعلول إما منافق يترضى الحاكم الجديد ، وإمّا خائف تسنح له الفرصة فيهتف باسم الحسين فى معزل عن العيون والأرصاد .

قدّمت ليلى إلى أترابها فى مجلس من مجالس السمر، ابن ذريح على أنه رضيع الحسين ، قادما من يثرب يشفع عنـدها لصديقه قيس . قالت عبلة لجارها بشر:

« أتسمع بشر: رضيع الحسين، فديت الرضيعين والمرضعه »
« وأنت إذا ما ذكرنا الحسين تصاممت ... ... »

فانظر كيف يجيبها وكأنه أهين :

« ... ... لا جاهلا موضعه »
« ولكن أخاف امرأ أن يرى على التشـيع أو يسمعه »
« أحب الحسين ولكنما لسانى عليه وقلبى معـه »
« حبست لسانى عن مدحه حذار أمية أن تقطعه »

ثم ترى الحسين فى موكبه بين مكة والمدينة، فاذا الحادى يغنى :

« يا نجـد ... ... »
« سر فى ركاب الغمام ليـثرب »
« هذا الحسين الإمام ابن النبى »

و إذا عامل من عمال بنى أمية ، هو نصيب كاتب ابن عوف أمير الصدقات فى الحجاز ، ينسى فى جلالة هـذا الموكب نفسـه ومكانه من أمية، فيجيب زيادا والغضب آخذ منـه ، إذ يسأله من لواء الموكب؟ » .

« قد بين الحادى فقل أصم أنت أم غبى »
« هذا منار العرب هذا الحسين ابن النبي »
« هذا سنا جبينه ملء الوهاد والربى »

و إذا ابن عوف أشدّ من صاحبه حرصا على نفسه ومكانه من أمية، و إذا هو أكثر منه تقديرا لسلطانهم ؛ وكأنى بك وقد أشفق على نصيب أن يصيبه غضب مولاه، لكن الواقع أن مولاه لا يغضب منه ولا يقسو عليه و إنما يكفيه أمره عتب تافه يهمس به إليه .

« نصيب صه لا تسلكن بنا مسالك التهم »
« إحذر جواسيس ابن هند وعيون ابن الحكم »

وكأنه فى هذا العتب الهامس الرقيق يشارك عامله فى تقديس الحسين ، بل هو يجهر بهذا الحب جهرا ضمنيا إذ يقول لزياد عن غيبوبة المجنون :

« زياد انظر فما انفك صريع الوجد والذكرى »
« كما مرّ بنا الركب الحسينى به مسرّا »
« فلم يشغل له بالا ولم يوقظ له فكرا »

ثم يعود نصيب فى موقف آخر فيذكر الحسين غائبا، لكنه يذكره فى هذه المرة بينه و بين نفسه، لايخشى سطوة أمية ولا عتب ابن عوف «ولا عيون ابن الحكم» فتراه فى هذه المرة يلعن الزمن و يلعن الوظيفة إباء على مولاه أن يتشبه بالحسين فى الشفاعة لعاشق، إذ يقول:

« يا دهر در بما تشا   و يا حوادث اهزلى »
« و يا وظيفة اعزبى   و يا جراية ارحلى »
« يبغى ابن عوف أن يكو   ن كالحسين بن على! »

وهنا تخرج ليلى أو يخيل إليك أنها خارجة عن تلك القاعدة التى وضعناها لسكان البادية ومنزلة الحسين من نفوسهم! كما تخرج عنها فى قول ابن ذريح:

« ألأنى أنا شيعى وليلى أموية.؟ »

ويخرج معها قيس فى هذا البيت، أو كذلك يخيل إليك:

« ليلى على دين قيس   فحيث مال تميل »

على أنه بالرغم من كل ما ذكرنا فى هذه اللمحة السياسية، يجب أن نعود فنقول إن هذا التشيع الحزبى لم يكن له أثر كبير فى حياة

أولئك العرب البادين ؛ ولم يظهر فى هذه الرواية إلا فى بضعة مواقف ، ثم غطاه المؤلف بنزعة أقوى منه أثرا فى حياة قاطن الصحراء ، نزعة تعبر عنها ليلى إذ تقول :

«ولم نصطدم بهموم الحياة ولم ندر لولا الهوى ماهيه»

ويعبر عنها زياد إذ يقول :

«سيطر الحب على دنياكمُ كل شيء ما خلا الحب عبث»

عادات العرب

أظهر ما يضرب العين فى هذه الرواية من عادات العرب تلك السنة التى جروا عليها أن يحولوا بين العاشق ومعشوقته إذا شبب بها وأعلن هواه والتى يقدّمها المؤلف فى أكثر من موضع يقول فى أحدها :

«ومن عادة البيض نفض الأكف من العاشقين إذا شببوا»

والتى يعللها لك المؤلف بخشية العار والفضيحة فى أكثر من موضع كذلك يقول فى أحدها والحديث عن ليلى بين قيس وشيطانه :

« لولاك ما بحت بما   خدش ليلى وجرح »
« كأنه في عرضها   زيت على الثوب سرح »

والمؤلف يرجع بهذه السنة إلى شرع جاهلى قديم، نرى أقوى الشواهد عليه فى قوله إن ليلى إذ ضربت بغرامها الأرض إنما كانت :

« تصون القديم وترعى الرميم   وتعطى التقاليد ما توجب »
« وبالجاهلية إعجابها   ... ... »

ثم ينحدر المؤلف بهذه السنة قوية مع الزمن حتى تعرض لها حضارة الإسلام فتوهن من قوتها ، وترسل فى جبروتها نفحة من روح التسامح، تهمس تارة على شفتى رجل مجهول أن ليلى إذا كان إعجابها بالجاهلية فقد « قل بالسلف المعجب » وتنادى حى ليلى تارة على لسان شخص آخر :

« هبوه جن بليلى   ليس الغرام بجرم »

ثم تتغنى تارة على ألسنة الصغار :

« إيه يا شاعر نجد   ونجى الظبيات »
« أضمر الحب وأبد   لأعف الفتيات »

ثم تتحرك هذه الروح فتستشفع الحسين فى عاشق ، وتستشفع ابن عوف فى عاشق آخر ، ثم تقوى هذه الروح فتسلط الندم والعذاب والتعاسة على هذه الفتاة التى «تصون القديم وترعى الرميم وتعطى التقاليد ما توجب» تجعلها «مأمورة يقود لسانها شيطان» وطعينة « بسكين من العادة والوهم » وتنزلها فى بيت « هو القبر حوى ميتين جارين على الرغم»ثم تسلط عليها الداء «يلتهم هيكلها» واليأس « يصدع قلبها » والموت يسلبها الحياة .

على أن هذه الروح الجديدة التى دبت فى عنق هذه التقاليد لم تزلزل سلطانها جميعا ، وحسبك ما رأيت من هدر دماء قيس ترضية لهذه التقاليد حتى تعلم أن هذه الروح كانت فى مولدها تعمل عملها البطىء فى سكون .

ثم يتلو هذه العادة سلسلة من أخواتها الصغار منها استدفاع الحذر بنداء الحبيب ، وعلاج الغيبوبة بالتكبير فى أذن المغمى عليه وإيقاد النار وراء الضيف الثقيل وفى هذه يقول ابن عوف :

«نزلت فلم أكرم فهل أنت متبعى وقومك نار الطرد حين أميل»

ومنها تصفيق المسافر وارتداؤه الثوب مقلوبا إذا ضل الطريق، ومنها — ونقرر هذه العادة بشيء من التحفظ — إطلاق الحرية للفتاة فى اختيار القرين كما يبدو فى قول المهدى لفتاته :

«هو الحكم ياليـل ما تحكمين   خذى فى الخطاب وفى فصله»

فقـد تكون ثقـة الرجل من رأيها وقوتها وحرصها على حرمة التقاليد، هى التي جعلته يقامر مطمئنا بهذا الإطلاق ، وقد يكون هذا التحفظ لا محل له إذا وضعناه فى الميزان مع قول من يقول :

«وليلى آبنة الشـيخ ما رأيها   أما من حساب لهـا يحسب»

حيـاة البـادية

فى هذه الرواية صورة متفرقة من السهل أن نؤلف منها يوما من أيام البادية بسيط المطامع فى جاه الحياة ... ماذا يفعل البدوى فى يومه هذا وما هو إلا ظل مصغر من حياته جميعا ؟ يأكل من طعامه البسيط وتسميه هنـد « ما طهت المـاشية » ويبسط لك المؤلف أحفل موائد هذا الطعام البسيط فى قول المهدى :

«هو الضيف ياليل هاتى الرطب وهاتى الشواء وهاتى الحلب»
«وهاتى من الشهد ما يشتهى ومن سمنة الحى ما يطلب»

ثم يرعى قطعانه يأكل منها ويكتسى من صوفها بما تغزل يداه.

ثم يصيد أحيانا لرياضته وأحيانا لطعامه ليدفع عن نفسه ضراوة الوحوش وفى ذلك تقول ليلى :

« وآنا نخف لصيد الظبا ء وآنا إلى الأسد الضارية »

ثم يحب، وسنعرض لهذا الحب بعد قليل ، ثم يؤمن بالدين والجن والسحر وتراها مجتمعة على لسان ليلى إذ تقول :

«لا الحواميم تصرف الجن عنا حين تتلى ولا رقى السحر تجدى»

ثم أخيرا يحرص على شرفه وعرضه، ويدفع عنهما بالروح بغى الآثمين، وخير مايبدو لك هذا العنصر القوى فى حياة البدوى عند ما ينادى المهدى رجل من رجال الحى :

« ذد عن عقيلة الحمى وامنع حياض الشرف »
« نحن كعثمان وليـــلى بيننا كالمصحف »

غرام البادية

تحدّث ليلى عن البادية فتقول لابن ذريح :

« أكنت من الدورأم في القصور ترى هـذه القبـة الصافيه »
« كأن النجـوم على صـدرها قـلائد ماس على غانيـه »

ثم تستأنف حديثها فتقول :

« لها قبلة الشمس عند البزوغ وللحضر القبـلة الثـانيـه »

وتحدّث هند عن هذه البادية نفسها فتقول :

« كفى يابنة الخال هذا الحرير كثير على الرمة البـاليه »
« تأمّل ترى البيد يابن ذريح كمقـبرة وحشـة خاويه »
« سئمنا من البيد يابن ذريح ومن هذه العيشة الجافيـه »
« ومن موقد النـار فى موضع ومن حالب الشاة فى ناحيه »
« وراغية من رواء الخيـام تجيب من الكلأ الثـاغيه »
« وأنتم بيـثرب أو بالعـراق أو الشـام فى الغرف العاليه »
« مغنيكم معبـد والغـريض وقينتنا الضـبع العـاويه »
« وقـد تأكلون فنون الطهاة ونأكل ما طهت المـاشيه »

وشيء واحد فى حياتى هاتين الفتاتين يعزى إليه هذا التناقض البين فى الرأى والتقدير ، أن ليلى فتاة محبة محبوبة ، وأن هندا ... ليست هند كما أرادها المؤلف إلا قلبا مغلقا لم تمسس قفله يد الساحر!

أولئك قوم من سكان البادية يعيشون فى هذا العالم المنبسط ، بين سمائه الصافيــة ورماله المترامية وأفقــه البعيد ، كأنما يعيشون فى فراغ يمثلون فى قصة صغيرة موجزة من قصص البشرية الأولى حيث القلب خلى والمطمع ضئيل واللهو ساذج والرزق محدود ، حيث تمر الحياة كأنها فى بساطتها وتكرارها وتشابه مناظرها بياض نهار وسواد ليل ، نهار ممل وليل مضجر طويل ، ودون هذا وتحس هند أنها تعيش فى قبر تتغنى الضباع العاوية فيه !

فى وسط هذا الملل والضجر قد يتفتح قلب البدوى للهوى ، فإذا هو الهم الشاغل والفصل الحافل فى حياة البــدوى إن لم يكن حيــاته كلها .

لقد يمنع الحضرى لهواه ركنا من قلبه الزاخر بهموم الحضارة وأطماعها ولهوها ولعبها ودنياها ، يمنحه هذا الركن منحة ، وهو واثق

أنه الركن الضيق المنزوى، وأنه الركن الذى تصيبه فواجع التضحية بين العاطفة والمادة .

أما البدوى فلا يمنح من قلبه لهواه شيئا وإنما يسلبه هذا الهوى عن قلبه كل شيء ، كلما عز فيه المنال ، وما أكثر ما يعز منال الهوى فى البادية كلما اندفع صاحبه وراءه اندفاع المتكالب المجنون فهل من عجب بعد ذلك أن ترى ليلى البادية ما تراها ، وهل من عجب أن تقول عن نفسها وقومها :

« ولم نصطدم بهموم الحياة ولم ندر لولا الهوى ما هيه »
« ويقتلنا العشق والحاضرات يقمن من العشق فى عافيه »

وهل من عجب أن يخامر هذا الداء قيسا فيقول :

« سجا الليل حتى هاج لى الشعر والهوى
وما البيد إلا الليل والشعر والحب »
« ملأت سماء البيد عشقا وأرضها
وحملت وحدى ذلك العشق يارب »

دع هذا الهوى فى قلوب أصحابه يزخر ويتقد، وعد بنا إلى البادية ...

وما ظنك بأرض يضخم فيها كل شيء ؛ يزأر الأسـد فيرعد زئيره ، ويخفق القلب فيقتل خفوقه ، ويعـثر العاشق عثرة لسان – كما تعثر لسان قيس بليلة الغيل – فإذا عثرته فضيحة تذل قبيلة وتملأ بذلها أفواه الكبار والصغار؟... ثم أخيرا ما ظنك بحب يعيش فى هـذا المحيط ؟ أيستطيع هذا الحب إلا أن يكون « عذريا » تحار الرق فيه؟ أيستطيع هذا الحب إلا أن يعف ويتصوّف حتى تفتح له نافذة فى هذه الأقفاص ؟

قيـس

ليست حياة قيس فى الرواية إلا زفرة متصلة تتردّد فى قلب مغرم جريح .

ولكنا نعرض لقيس من ناحية أخرى فقد تكون عارضا على حياته لا يدله فيه، وقد تكون فى حياته صدى هذا الهوى المجتاح، نعرض له من حيث اتهم بالجنون ولقب به، لنرى حظه من حقيقة العقل أو حقيقة الجنون .

الناس يصمون قيسا بالجنون أحيانا ، ثم يستنقذونه من هذا الجنون أحيانا ، ثم يأخذهم فى أمره كثير من الشك والحيرة أحيانا أخرى ، وهم فى هذه الثلاثة الأحوال يتحدّثون عن قيس فى شىء من يقين الواثق بصدق ما يقول . والمؤلف حفظه الله أشار إلى ذلك ، انظر إلى منازل يقول عنه لزياد :

« تؤدّبنى زياد وأنت ظل لمجنون وراوية لهاذى »

ثم يعود مرة أخرى فيسأل الناس :

« إن قيسا كامل فى عقله أوآنستم على قيس الجنون ؟ »

فيجيبه الناس مقسمين : « لا ورب البيت » .

وتراه فى مرة ثالثة حائرا فى أمر قيس يتحدّث عنه فيقول :

« تشرد مستعظما فى البلاد وجنّ فما ازداد إلا نهى »

بل مالى أستشير لك خصوم قيس فى عقل قيس ، إليك ليلى نفسها ، إنها فى موضع واحد تقرّر من عقل قيس ما يقرّر الناس ، وتنفى عنه ما ينفون وتحار فيه كما يحارون إذ تقول :

« وقيس ذو جنة وإن زعموا جنونه مدعى ومصطنعا »
« تحير الناس فى جنون فتى لا عقل إلا بشعره ولعا »

وهذا قيس كذلك يقول مرة :

« من مبلغ أمى الحزينة أن عقلى اليوم ثاب »

فى مرة أخرى يقول :

« عساهم لا يقولون فتى مشترك اللب »

وفى موضع آخر يقول ويحار فى أمر نفسه كما يحار فيه الناس :

« ليلى نداء بليلى رنّ فى أذنى ... ... »
« ليلى لعلى مجنون يخيل لى لا الحى نادوا على ليلى ولا نودوا »

بعد تلك الإشارة نظر المؤلف إلى ما يصدر عن قيس من أفعال وأعمال .

فى الفصل الأول أغمى على قيس بين يدى ليلى مرة ، فى لحظة تحرجها خشية الأب ، ولذعة النار ولقاء الحبيب فى معزل ...وقبل هذا الإغماء كان قيس يتحدّث لليلى حديث العاشق العاقل ، فأحس أن عينيه قد غامتا ، وأن ساقيه لا تحملان جسده ، ثم أخذته الغيبوبة فظل أسيرها لحظات حتى أفاق .

« كالفنن الذاوى نحـولا   وكالمغيب اصفرارا »

فإذا صحا عاد فتحدّث الى المهدى حديث العاقل وجادله جدال العاقل لا يكدر صفاء عقله وسواس من وساوس الجنون .

وفى الفصل الثانى أغمى على قيس للمرّة الثانية ، فى لحظة حرجة أخرى ، أحرجتها لوعة الذكرى كما أحرجها عذاب النفس ، كما أحرجها بغى الصغار ... وقبل هـذا الإغماء كذلك كان قيس يحدّث نفسه حديث العاقل ، يقدّر الإساءة إليـه ، ويقدّر شخص المسىء ، ويعفو عن هذه الإساءة كما يعفو العاقل الغفور الرحيم .

« قيس لا ـ سامح صغارا   لا يحسبون الخطيئه »
« إنهـم فيما أتـوه   ببغاوات بريئـه »
« لقنـوها كلمات   نزهـات أو بذيئـه »

ثم تأخذه الغيبوبة فينسى ما حوله ، ويظل أسيرها لحظات حتى يفيق منهـا فيتحدّث عن هواه حديث المحب العـاقل يسمع اسم ليلى على ألسنة الناس فيغار ويناقش ويخيل إليه عند ما ينتهى رنين الصوت فى أذنه ، أن هذا الصوت لم يكن إلا هذيان إغماء .

« ليـــلى ... ... »
« هل المنادون أهلوها و إخوتها أم المنادون عشاق معاميـد »
« إن يشركونى فى ليلى فلا رجعت جبال نجد لهم صوتا ولا البيد »
« أغير ليلاى نادوا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالى الخرّد الغيـد »
« ... ... »
« ليـلى لعلى مجنون يخيـل لى لا الحى نادوا على ليلى ولا نودوا »

وفى الفصل الثالث يغمى على قيس للمرة الثالثة ، فى لحظة أخرى أحرجتها خشية الموت وخشية الفشل ... وقبل هذه الغيبوبة كذلك كان قيس يناجى ليلى وحبها مناجاة العاقل و يقرر و ينفى و يناقش فى منطق سليم ، ثم تدركه النوبة و يعوده الإغماء ، وقبيل أن يتمكن منه يرى ما لا يراه الناس فى حى ليلى ، يراها هى ولا يحقق غيرها و إن كثر لدى حماها السواد ، وما فى حى ليـلى سوى سيوف مسلولة وأسود مغضبة ، ترقبه لتشرب من دمه وتنتقم منه لقداسة التقاليد ، ثم « يتضاءل و يصفر به مثل الجرادة » ويكاد يهوى إلى الأرض فيتلقاه زياد ، وتأخذه الغيبوبة المعهودة ولا نستطيع أن نتعقبه عندما يفيق .

ثم يكون الفصل الرابع فنرى قيسا على مقــربة من دار ليــلى وحيها الجديد ، وفى لحظة لا بد أن تكون هى الأخرى كأخواتها حرجة ، يحرجها الجهد والتعاسة ووعثاء السفر ، وتوقع لقاء الحبيب تراه يتصوّر صورا لا يمكن أن تخطر فى خيال عاقل ، فهو يرى الجن و يصفهم و يتحدّث معهم ، و يقول لأحدهم :

« ما أنت إلا صورة   فى عصبى مصوّره »
« أو عبث لو كان عقــــلى حاضـرا لأنكره »

ثم يستردّ عقله الكامل بعد هذه الأزمة الحرجة فيناجز غريمه فى ليلى مناجزة العاقل ، ويتهكم عليه تهكم العاقل ، و يناقشه مناقشة العاقل ، و يغار منه غيرة العاقل ، ثم يسلمه غريمه إلى ليلاه ، فإذا حديثه إليها حديث العاقل كذلك ، و إذا نجواه منها فى دائرة المنطق السليم ، و إذا غيرته كذلك وغضبه وكل ما يفعل لا تصدر إلا عن محب عاقل غيور .

ثم يكون احتضاره فى الفصل الخامس ، حيث يسمع ما لا يسمع الناس و يرى ما لا يرى الناس وما يعنينا هذا الاحتضار أن يعقل

فيه ألا يعقل، فقد يهذى كل محتضر ويخلط، وحسبنا مادة للبحث تلك الفترات القصار التى كانت تتسع بقيس وعقله إلى مكان بين بين، لا هو من الموت ولا هو من الحياة .

أية صورة من صور العافية أو أية صورة من صور الجنون الذى يعتاد سواد الناس، تستطيع أن تعطى حيرة الناس فى أمر قيس، وحيرته فى أمر نفسه، وتلك الأدوار المتناقضة فى هذه الحياة المضطربة صحو يكون العقل والحواس والحركات فيه أصفى وأسلم ما تكون العقول والحواس والحركات، ثم غيبوبة يختلط فيها العقل وتنطلق الحواس وتنشل الحركات، ثم كذلك دواليك حتى تنطفىء هذه الحياة ؟؟

لا شىء من صور الصحة ولا شىء من صور الجنون، يستطيع أن يغطى هذه الظواهر، إنما الذى يغطيها ويشتملها جميعا هو المرض والمرض أنواع .

قيس إذن فى نظر المؤلف رجل عاقل مريض، بالغ الهوى له فى وطأة الداء، وليس ضلال الناس فيه، وقيس ضلاله فى نفسه

إلا جهلا بهذا الداء كيف يكون، وتسمية له بأقرب الأسماء اتصالا بهذه الحياة المضطربة ، فى رأس هـذا البدوى الجاهل بضروب العلل والأدواء، وأى الأسماء فى هذا الرأس أقرب اتصالا بهذه الحياة من ذلك الاسم القـديم المعروف ... الجنون ؟؟ كما أن ضعفه وهزاله كما يبدوان لك — أظهر ما يبدوان — فى قوله عن نفسه :

« أنا الميت يا بشـــر وإن أخـر تكفينى »

ليس هذا الضعف والهزال إلا مزيجا من وقدة العاطفة وزمنة الداء ومن السهل بعد هـذا أن نتعقب أخلاق قيس فى الرواية ، إباءه وعزته ، ورفعته وسماحتـه ، وأثرته وغيرته ، وليست كلها إلا صورة لأخلاق شاعر محب مريض .

ليـــــلى

نتلخص حياة ليلى وحبها فى هذه الكلمات :

«أنا بين اثنتين كلتاهما النـار ... ... »

«بين حرصى على قداسة عرضى واحتفاظى بمن أحب وضنى»

فأما أنها كانت تحب قيسا فقد ظلت تعترف بهذا الحب طول الرواية تارة بينها و بين قيس ، وتارة أخرى بينها و بين الناس . وأما أنها كانت تحمل من هواها ما يحمل قيس من هواه ، وتصون منه ما يصون ، فهي وإن ألحت فى التصريح به ، فقد كان سلطان التقاليدالبدوية عليها أقوى من سلطان هذا الغرام ، وقد رضيت أن تقتل نفسها وتقتل هواها وتخيب فى قيس شفاعة الشافعين حرصا على حرمة هذه التقاليد .

ولقد تختلط هذه الحقيقة المؤكدة بكلمة نطقت بها ليلى ، إذ يقول لها أبوها وقيس مغمى عليه فى داره ، وليلى تستنصر له وتستغيث «يرانا الناس ياليلى» فتجيبه «أبى انف الناس من فكرك»

كذلك تبدو ليلى كأنما تحتقر الناس وما يقولون ، لكنها لا تلبث أن تستدرك هذه العثرة فتقول ، وتخشى من سلطان التقاليد ما كانت دائما تخشاه :

« هنا لا تقع العين على غيرى ولا غيرك ! »

وإلى جانب هذا الحرص على كرامة التقاليد منحها المؤلف قوة في الرأى وعنادا فيه، قد يكونان أثر هذا الحرص فى نفسها وتراهما حيث يقول عنها قائل :

«أراها وإن لم تخط الشباب عجوزا على الرأى لا تغلب»

وحيث يستغل أبوها فى نفسها هذه القوة، فيدارى ابن عوف على حسابها، ويطلق لابنته الحرية أن تتزوج من قيس أو سواه وهو مؤمن كل الإيمان بقرارها الأخير. وحيث يستغل زوجها ورد فى نفسها هذه القوة كذلك فيفتح بيته لغريمه راضيا، ويترك شرفه تحت رحمة هذا الغريم راضيا ، وهو موقن كل اليقين أن شرفه — ومن دونه هذه القوة — مصون لا يخشى عليه عدوان. وحيث تبرهن ليلى على هذه القوة الكامنة فى نفسها برهانا قويا فى آخر مواقفها وقيس ، ترى فيه مورد الهوى صافيا ممهد السبيل ، ثم تأباه على نفسها ، وتموت عطشى حرصا على العرض والشرف وكرامة التقاليد .

المهــــدى

هذا الرجل طريدة أخرى من طرائد التقاليد البدوية فى هذه الرواية ؛ لكن طاعته إياها رزينة لا تعرف العنف ؛ طاعة تقف منها عاطفة الحنان على ابنته إذ يقول :

« أخاف الناس فى أمرى وأخشى النــاس فى أمرك »

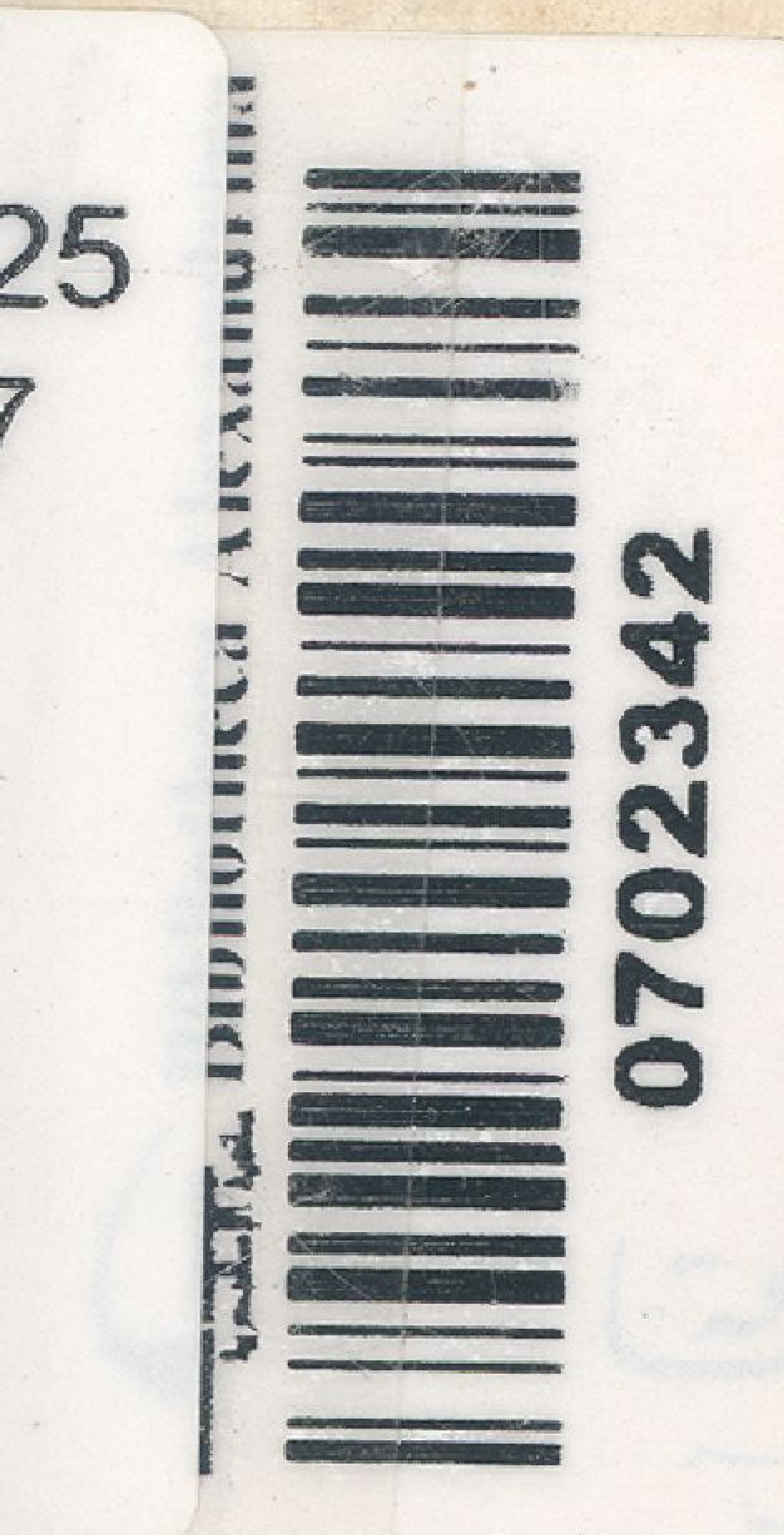
« وكم داريت يا ليــلى وكم مهــدت من عــذرك »

وعاطفة الرفق بشاب من ذويه زلت به هذه التقاليد إذ يقول :

«دم الود والقربى وإن كان ظالما عزيز علينــا أن نراه يســيل»

ستار الختام

تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر



شركة فن الطباعة
شارع الازهار رقم ١ شبرا مصر